

# جَانِجَاكُ زُوْسُوْرَا

لمصلح الاجتماعى

تأليف

محمد عطية الأبراشي

مخرج جامعي، أستاذ في لندن

والفتش العام، وزارة المعارف

---

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

---

الطبعة الأولى

( ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م )



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مُفَدِّمَةٌ

أحمد الله على آلائه ونعمائه ، وأصلى وأسلم على صفوة أنبيائه ، محمد صلى الله عليه وعلى أصحابه . وبعد : فيسرنى أن أقدم إلى القراء على اختلاف حظوظهم من العلم ، ودرجاتهم من الثقافة قصة رجل ، كان علماً كبيراً من أعلام التربية ، وإماماً قديراً من أئمة السياسة ، وزعيماً مخلصاً من زعماء الإصلاح الاجتماعى ، ومداناً غيوراً عن حقوق الفقراء ، ومطالباً جريئاً بالحرية والمساواة والإخاء ، ذلكم هو الفيلسوف الكبير ، والمصلح الاجتماعى الخطير « جان جاك روسو » .

ولكن روسو على ما له من جليل الأثر فى السياسة والتربية والاجتماع كان سبباً الحظ فى حياته ؛ فكثيراً ما عبس له الدهر ، وتنكرت له الحياة ، فعاش فقيراً مشرداً شقيماً بانسا ، ثم ودع الحياة وقد شرب كأس البؤس والعوز والفقير حتى الثمالة ، ولعل هذه الحياة كان لها أثر فى تلك العبقرية الفذة التى عرف بها روسو فى زمانه ؛ فقد كتب كثيراً ، ونادى بأراء إصلاحية فى عصر كثر فيه العسف والاضطهاد ، واشتد الجور والاستعباد . وكانت الرقابة على ما يكتب ويتشر من أشد ما عرف فى عصر من العصور ، فعرض نفسه للنفى والهرب من الاعتمال . وطغى يقتل من بلد إلى بلد ، ومن مكان إلى آخر ، فلم يجد للراحة سبيلاً فى حياته ؛ لذلك عاش هذا الفيلسوف المربى معذباً كثير الآلام ، غير أن ذلك لم يفت فى عضده ، ولم يصرفه عن غايته وتأدية رسالته ، بل جهر بأرائه غير مكترث لما يناله من تمذيب أو تشريد ، شأن العظماء من الرجال . وفضلاً عن ذلك قد عاش فى بيئة أظهر ما فيها الظلم والقسوة ،

والفساد والريبة ، فارتكب ما شاء أن يرتكب من الهفوات عامدا أو مضطرا .  
وإذا كانت قيم الرجال تقاس برجحان كفة الخير على كفة الشر في ميزان التقدير ،  
فإن روسو قد قدم للإنسانية خيرا كثيرا . عاش مع الفقراء فعرف كيف يعيشون ،  
وعاش مع الأغنياء فأدرك كيف ينعمون ، ومايز بين هؤلاء وهؤلاء ، واستنبط من ذلك  
دروسا وعبرا ، تكيفت بها آراؤه .

وقد ألفت كتب كثيرة حول روسو باللغات الأوروبية ، وعنى الغربيون بدراسته  
وتحليل آرائه ، كما ألف روسو نفسه كتبا كثيرة ، ذكر فيها الشيء الكثير عن حياته  
وآرائه ، ومع هذا فقد كان من الصعب أن نصل إلى كلمة الحق فيه ، وأن نقول الحق  
الذي نثق به كل الثقة ، ويرتاح إليه ضميرنا فيما يتعلق بحياة ذلك الفيلسوف المصلح ،  
مما لا يدع مجالا للشك أو الحيرة . ولم يكن من اليسير المهين أن نحكم عليه حكما خاليا  
من المحاباة ، تتمثل فيه العدالة التي تطمئن إليها النفس ؛ فقد اختلفت فيه آراء  
الكتاب المعاصرين له ، وتباينت أحكامهم عليه ، فكان منهم الصديق الراضى ،  
والعدو الخائد ، وكان منهم المعجب المدافع عنه بقلبه ولسانه ، والمبغض له الذي يقسو  
عليه ، ويهاجمه بحق وبغير حق ؛ لذلك كانت مهمة الحكم على روسو شاقة غير يسيرة ،  
تكلفنا فيها كثيرا من العناء ؛ لأن روسو لم يترك له صديقا في حياته ، وكان فيه من  
الشدوذ ما حمله على أن يشتجر مع كل من عرف ، وبالرغم من كل هذا قد تتبعنا  
كل ما كتب له أو عليه ، وقرأنا مناقشاته واعترافاته ، ولم يكن غرضنا إلا الوصول  
إلى الحقيقة ، التي يمكن الاعتماد عليها ، والاطمئنان إليها .

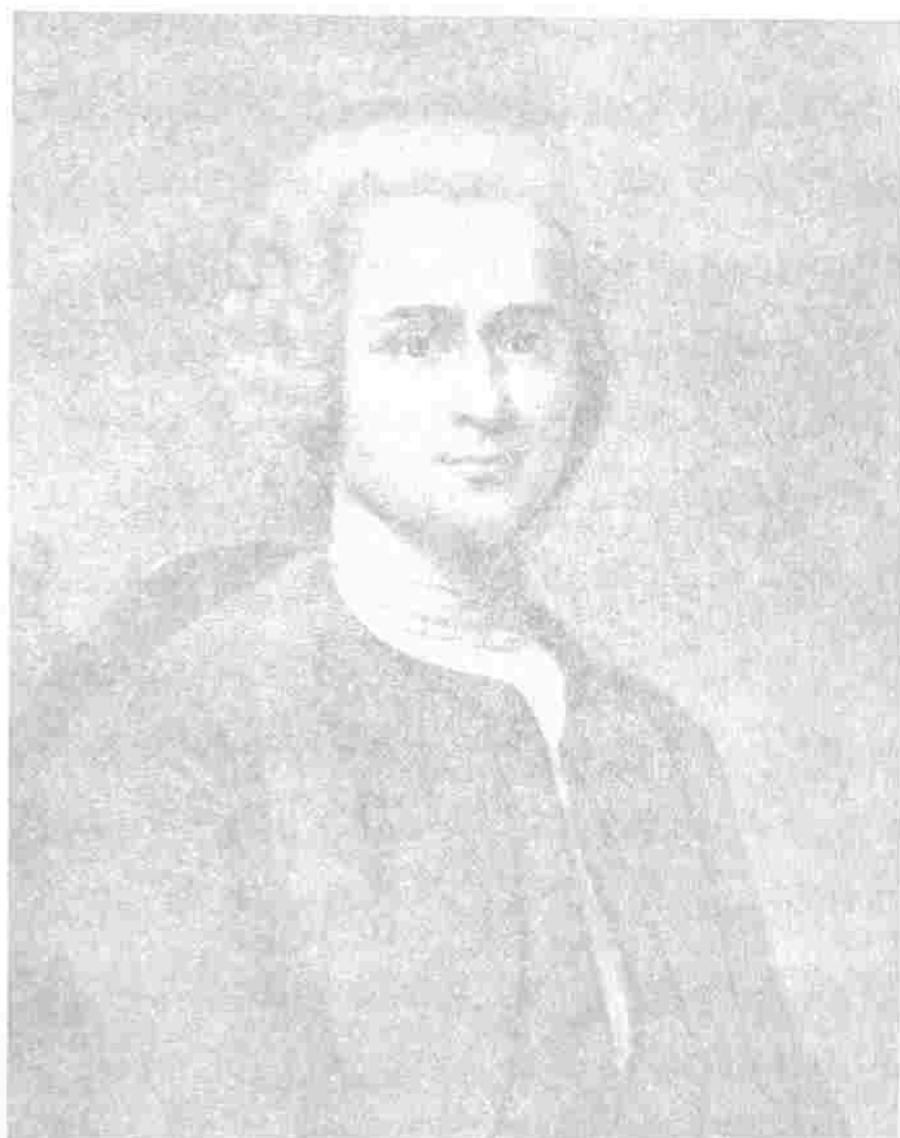
وقد حاولت أن يكون أسلوب الكتاب سهلا ، فجعلته قصة تتحدث عن حياة  
روسو وأخلاقه في طفولته وغلومته ، وشبابه ورجولته . ولم أغفل في هذه القصة

الحديث عن رسائله التي كان لها شأن عظيم في حياة الإنسان وحرية، والتي كانت من أسباب تلك الثورة الهائلة، التي اهتزت لها أركان العالم، وهي الثورة الفرنسية، التي غيرت وجه التاريخ، وتقررت بعدها حقوق الإنسان. ومن هذه الرسائل رسالته في « أثر العلوم والفنون في الأخلاق »، ورسالته في « عدم المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان »، ورسالته في الاقتصاد السياسي، ورسالته في العقد الاجتماعي، ثم اعترافاته. ولكي يتمكن القارئ من نطق الأعلام والأسماء الإفرنجية التي وردت في هذا الكتاب نطقاً صحيحاً كررتها مكتوبة باللغتين الإنجليزية أو الفرنسية على الهامش. ولم أتعرض لذكر آراء روسو في التربية هنا؛ لأنني وجدت من الإنصاف لهذا المربي العظيم الشأن أن أتناول هذه الآراء القيمة بالدرس في كتاب مستقل ألفناه قبل هذا، هو: « جان جاك روسو وآراؤه في التربية والتعليم »؛ فقد شغل روسو في عالم التربية أذهان العلماء، واحتل بين المرين المكانة السامية.

ولصغر حجم الكتاب الحالي لم أتمكن من بحث كل رواية من رواياته، أو كتاب من كتبه. وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل باشا الكثير عن رواياته وكتبه في أول كتاب له ظهر باللغة العربية عن جان جاك روسو سنة ١٩٢٢.

وإني أهدي هذا الكتاب إلى كل باحث حر الرأي والفكر، وكل مصلح اجتماعي بمصر والشرق، مستمداً العناية من الله القدير، راجياً منه السداد والتوفيق، إنه سميع مجيب.

محمد عطية البراشي  
القاهرة في : ٢٨ من فبراير سنة ١٩٤٦ م  
٢٦ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ هـ

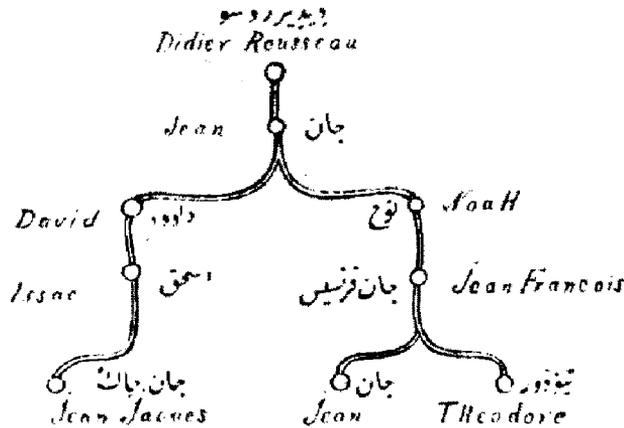


جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م)  
المربي والمصاحح الاجتماعي

## طفولته وحياته الأولى

حوالى سنة خمسين وخمسة وألف من الميلاد اضطر بأفع الكتب (ديدير روسو) أن يرحل من موطنه الأصلي باريس ؛ ليقم بمدينة جنيف بسويسرة . وكان سكان جنيف فى ذلك الوقت عشرين ألفا . فى هذا الوطن الجديد اشتغلت أسرة (ديدير روسو<sup>(١)</sup>) وأبناؤه من بعده بالتجارة ، وعرفت تلك الأسرة فى المجتمع السويسرى بتلك المدينة الجميلة ، مدينة جنيف .

ولكى نعرف (جان جاك روسو) المربى العظيم ، والمصلح الاجتماعى الكبير يجب أن نعرف شيئا عن نسبه .



و بالنظر إلى النسبة السابقة نرى أن جان جاك روسو هو ابن إسحق بن داود ابن جان بن ديدير روسو .

وفى الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٧١٢ ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف بلد العلم والحرية ، والأدب والإصلاح . وكان والده إسحق يشتغل معظم الوقت صانعا للساعات ، وبعض الوقت معلما للرقص . وفى اليوم الثامن من ولادة جان جاك فقد أمه

(سُوْرانِ بَرَنار) ، وقد كانت من أسرة دينية بجنيف . وفي ذلك يقول روسو :  
« لقد ولدت ضعيفا مريضا ، وفقدت أمي حياتها بولادتي . فبولادتي بدأ سوء حظي » .  
وبعد وفاة أمه قامت عمته بتربيته ، فوجد منها عناية وعظما لم ينسهما لها طول  
حياته . وكان الجيران والأقارب يعطفون عليه كل العطف ليطمه في طفولته . وكثيرا  
ما كان يجلس مع عمته يلحظها وهي تنزل يديها ، ويضعي إليها وهي تغني تلك الأغاني  
المذبة الجميلة التي كان لها كل الأثر في نفسه . وفي كهولته وشيخوخته لم ينس عمته ،  
فكان يذكرها بقلبه ولسانه وقلمه ، ذكرى كلها حب وتقدير . وقد تذكر معاملتها  
الجميلة له ، ووصفها وصفا مسهبا في كتابته ، وتذكر الأغاني الشجية التي كان يسمعها  
منها ، وكانت الدموع تتساقط من عينيه حينما يحاول في شيخوخته أن يعيد بصوته  
الضعيف التهدج تلك الأغاني الفطرية الموسيقية الجميلة .

كان أبوه إسحق رجلا كثير الخيال ، سريع التأثر ، محبا لنفسه ، يميل  
إلى العاطفة أكثر من ميله إلى العقل ، ويندفع وراء اللذات أكثر من تفكيره  
في الفضيلة . عدّه ابنه جان جاك أحسن الآباء<sup>(١)</sup> ، وعدّه المثل الأعلى له ، وأعجب به  
كل الإعجاب ، واحترم مبادئه وآراءه كل الاحترام .

وكان لجان جاك روسو أخ أكبر منه تعلم صناعة الساعات مع أبيه ، ثم اختفى  
وهو شاب ولم يعد ثانية ، ولم يره أحد بعد اختفائه .

تعلم الابن الأصغر جان جاك القراءة وهو في السادسة من العمر ، ولم ين أبوه  
العناية التامة بتربيته ، فتركه في البدء لأقاربه ليعتموا بتربيته ، ثم تركه ونفسه ليعنى  
بشئونه الخاصة ، وقد احتفظ الأب لنفسه بالمال الذي ورثه جان جاك من أمه ،  
واقتمسه معه فيما بعد حينما كبر .

علمه أبوه القراءة ، وقرأ معه كتباً خرافية كانت لأمه . وقد اعتاد الأب والابن أن يجلسا كل ليلة بعد العشاء للقراءة حتى منتصف الليل حيناً ، وحتى مطلع الفجر أحياناً ، فكانا يستمران في القراءة إذا وجدنا لذة حتى يسمعا تغريد الطيور في الصباح ، فيذهبا إلى الفراش ليناما قبل شروق الشمس . وفي تلك الأيام التي كان يتصل فيها الأب كل الانصال بطفله الصغير كان الأب يتذكر زوجته (سوزان) فيخاطب ابنه جان جاك : « دعنا نتكلم عن أمك » . فيجيبه الابن « نعم يا أبي ولكننا سنسبكي » . فكان الأب والابن يبكيان كثيراً لهذه الذكرى المؤلمة . أخذ الأب يقرأ لابنه ، والابن يقرأ لأبيه كل ليلة فيما لديهما من كتب قصصية ، حتى أتتا قراءتها من أولها إلى آخرها . لم يكتف الغلام بقراءة تلك المجموعة التي ورثها عن أمه ، بل استعار مجموعة أخرى من أحد أقاربه من الكتب التاريخية والعلمية والدينية ليقرأها نهاراً في الوقت الذي يجد فيه أباه مشغولاً بصنع الساعات وإصلاحها . كل هذا وعمره عشرين سنة . وكان أحب الكتب لديه ، وأكثرها أثراً في نفسه كتب (بلوتارك) (١) .

قرأ كثيراً عن الوطنية والحرية ، والطبيعة والإنسانية ، والروح الديمقراطية ، والاستعباد والعبودية ، حتى امتلأ قلبه بحب الحرية ، والدفاع عن الإنسانية ، ومقت الذل والعسف والظلم .

انتهت تلك الأيام السعيدة بمحادثة محزنة ؛ فذات يوم من سنة ١٧٢٢م تشاجر أبوه مع أحد الضباط في جنيف ، وكان هذا الضابط قريباً لأحد القضاة الذين حولت عليهم هذه القضية للنظر فيها . فخوفاً من أن يضطهد ، أو يحكم عليه ظلاماً ، أو يسجن بغير مبرر ، هرب من جنيف بعد تلك الحادثة بيومين ، كي لا يعطى الفرصة لخصمه

---

(١) Plutarch's Lives : بلوتارك كاتب لإغريق ، لا يعرف مولده بالتحديد ، وقد وصل إلى أوج عظمته في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي . (سنة ١٠٠م)

للتحكّم فيه ، أو التسوية عليه في الحكم والعقوبة ، وأخذت الأسرة تنتظر عودته عبثاً ، ولكنه لم يعد ؛ هرباً من الظلم ، فحكم عليه غيابياً بطلب المغفرة من الله ، وطلب الصفو من الضابط ، والسجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها اثنا عشر جنيتها ونصف جنيتها . مكث الأب بعيداً عن جنيف ، وأقام في قرية نائية تدعى ( نيون <sup>(١)</sup> ) ، واستمر في هذه القرية مختفياً عن الأظار . وبعد ثلاث سنوات من فراره تزوج من تلك القرية ، وقضى بها البقية الباقية من حياته .

بعد أن فرّ الأب خوفاً من ظلم القضاء والتأثير فيه عنى بجان جاك روسو خال له يدعى ( برنارد <sup>(٢)</sup> ) ؛ كان مهندساً بمدينة جنيف ، فأرسله مع ابن له إلى قرية ( بوسى <sup>(٣)</sup> ) ؛ ايتافيا علومها على الأستاذ ( أمبرسير <sup>(٤)</sup> ) وهو أستاذ مخلص في مهنته ؛ يقيم بتلك القرية القريبة من جنيف . مكث روسو مع أستاذه سنتين وقيل خمساً . وقد حدث في أثناء تلك المدة حادثة تركت أثراً كبيراً في نفسه ؛ فذات يوم اتهم بكسر أسنان مشط <sup>(٥)</sup> ، فاحتج على هذا الاتهام بأنه لم يكسر أسنان المشط ، ودافع عن نفسه بغير جدوى ، وعمول كما يعامل المذنب ، وعوقب على ذنب لم يرتكبه ، فتألم من هذه العقوبة الألم كآله ، ولم ينس تلك الحادثة كما ينسى الغالبان عادة ما يحدث لهم . وقد كتب روسو عن تلك الحادثة حيناً بدأ يكتب قصة حياته بعد ذلك بخمسين سنة ، ووصف ما لحقه من ضرر ، وما شعر به من خجل ، وما أصابه من الظلم والذلة ، وقد وصف هذه الحادثة بقوله . « إنى أشعر وأنا أكتب هذه القصة بأن درجة النبض

---

(١) Nyon (٢) Bernard (٣) Bossy (٤) M. Lambercier

(٥) وكان هذا المشط للآتية ( لبرسير ) أخت معلمه ، وكانت تعطف عليه ، وتحسن معاملته ، فأحبها روسو حباً جما ، وهى في الأربعين من عمرها ، وهو في العاشرة من العمر . وكانت تلك الحادثة سبباً في تركه أستاذه ، وفي تصرده بعد تلك الدراسة المنتظمة المشرفة .

لدى لا تزال مرتفعة . وستظل هذه الذكرى فى نفسى إلى الأبد ، ولو قدر لى أن أعيش مائة ألف سنة ، فقد نقشت تلك التجربة القاسية ، تجربة الظلم والقسوة على صفحات قلبى ، وكل فكرة تتصل بتلك الحادثة تعيد إلى شعورى الأول . وقد تعلمت منى هذا الشعور حتى أصبح قلبى يتقد حرارة حينما أرى أو أسمع شيئاً فيه ظلم ، مهما يكن ذلك الشيء ، وفى أى مكان حدث . فكأنى كنت الضحية . ولو رأيت ظالماً يمتدى على إنسان ظالماً اعاقبت ذلك الظالم الممتدى فى الحال ، ولا أبالى بما يحدث لى ، ولو كان فى ذلك الحكم على بالموت مائة مرة .

فروسو كان سريع التأثر ، قوى الذاكرة ، قليل الدسيان ، ميالاً إلى الحزن . ولا عجب ؛ فقد ورث عن أمه قوة فى الوجدان ، ورقة فى العاطفة ، وشدة فى التأثر . وقد شعر روسو بعد هذه الحادثة بأن أيام السعادة قد انتهت ، وأن سرور الطفولة قد انتهى . مكث روسو مشرداً ستة أشهر ، رجع بعدها ( سنة ١٧٢٤م ) إلى بيت خاله « برنارد » ، فعميت به زوج حاله<sup>(١)</sup> العناية كلها ، وعاملته بكل عطف وشفقة . وأخذت الأسرة بعد ذلك تفكر فى مستقبله ، وفى العمل الذى يجب أن يعمل ، وفى المهنة التى يجب أن يتعلمها ، فأرسل وعمره ثلاث عشرة سنة إلى كاتب من الكتاب ليتعلم منه الكتابة ، وتسجيل العقود على كره منه ، فأخذ يعمل مكرهاً ، ثم زادت كراهته للعمل ، حتى بدأ أستاذه يحتقره ويعنفه ، وقد عده معاه غيبياً أو جهشاً ، وعيَّره بالغباوة مع أن خاله أخبره بأنه من أذكى الأذكياء .

لم ينجح روسو فى عمله الكتابى فأعيد إلى خاله ، فتألم جان جاك لإخفاقه فى عمله ، فأرسل ثانية فى ٢٦ من أبريل سنة ١٧٢٥م إلى نقاش ليتعلم منه فن النقش .

وكان ذلك النقاش قاسيا في معاملته للعلمان ، لا يعرف الرحمة ، والرحمة لا تعرفه ، فأخذ يتسوس على روسو، ويعامله بشدة وقسوة ، ويضربه بغلظة، حتى ساء خلق الغلام، وتعلم الكذب والسرقة ، واعتاد الجبن والخبث والكر ؛ خوفا من فظاظة معلمه . ولقد أحب الغلام فن النقش ، ذلك الفن الجميل في البدء ، ولكن ظلم معلمه جعل حياته شقية بئسة . وقد حدث في سنة ١٧٢٨ - وعمره إذ ذاك ست عشرة سنة - أن خرج في يوم الأحد مع بعض أصدقائه في رحلة خارج جنيف ، ثم تأخر في المساء، وعاد بعد أن أغلقت المدينة أبوابها ، فتذكر ما حدث له من سوء المعاملة من قبل ؛ فقد خرج ذات مرة في رحلة إلى الغابات ، ثم عاد متأخرا ، فسمع صوت أبواب المدينة وهي توصد ، فجرى المسكين خائفا ليلحق الأبواب قبل إغلاقها ، وأخذ يصيح بأعلى صوته إلى الجنود؛ كي ينتظروا. كل ذلك بغير جدوى . فقبل أن يصل إلى الجسر بعشرين خطوة ، رفع الجسر ، وامتنع الدخول . فلما ذهب في اليوم التالي إلى أستاذه استقبله بقسوة لا يمكن أن تحتمل ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا . فلما رأى أبواب الجسر قد رفعت وعجز عن دخول جنيف تذكر مالمقه من ألم ، وأخذ يرتعد ويفكر في النتيجة ، وشرع يسأل نفسه: كيف يقابل أستاذه في اليوم التالي؟ وماذا يقول له؟ فصمم على ألا يعود إليه مطلقا ، وهرب كارها النقش وأستاذه ، وقضى ليلته في الخلاء. وفي الصباح ودع أصدقاءه ، ووجد نفسه حرا ، وحسب العالم متسعا له ، مستعدا لقبوله، مرحبا به ، وفكر في حياة حرة سعيدة ، وظن أن تلك الحياة الجميلة تنتظره ، فأخذ يحوم حول جنيف أياما ، ويعيش مع من يعرفهم من إخوان لا يعرفون إلا الشر والذيلة ، فساءت أخلاقه ، وانحط مستواه ، وأصبح مثلهم في الأخلاق والآداب .

## روسو في غلومته وشبابه

لنذكر هنا حادثتين حدثتا لروسو وهو غلام ، فر بما تساعدنا هاتان الحادثتان في معرفة شيء عن حياته وهو غلام ؛ فقد اعتاد في كل يوم أحد أن يقضى هذا اليوم بقرية « باكوس »<sup>(١)</sup> بمنزل عمته وهي زوج (المستر فazy<sup>(٢)</sup>) وهو رجل كان يشتغل بصباغة الملابس . وقد حدث ذات يوم أن كان روسو في حجرة تجفف بها الملابس ، يلحظ الأستوانات الساخنة التي تكوى بها الملابس ، فأعجب بمنظرها الإعجاب كله ، فوضع أصابعه فوقها ؛ ليرى ماذا يحدث لها ، وأخذ يحرك أصابعه إلى أعلى وإلى أسفل فوق إحدى الأستوانات ، وقد حدث في هذا الحين أن أدار الصباغ العجلة بسرعة ، فأصابت الأستوانة أطراف أصابع روسو ، حتى كادت تهشمها ، وانتزع منها الأظفار ، فصاح صياحاً عالياً من شدة الألم ، فأرجع الصباغ العجلة في الحال ، وأخذ الدم يتدفق من أصابع الغلام ، وأسرع إليه زوج عمته ، وعاقه ، وتوسل إليه أن يهدئ من روعه ، ويقلل صياحه ، فتأثر الغلام بتوسله ورجائه ، وضبط نفسه ، وسكت في الحال مع شدة تأله ، فأسرع به زوج عمته إلى التربة ؛ ليفسل له أصابعه وأوقف الدم ، وتوسل إلى روسو - والدموع تتساقط من عينيه - ألا ينخر أحدًا بما حدث ، فوعده بذلك ، ووفى بوعده ، ولم يعرف أحد السبب الحقيقي لهذه الحادثة ، وكم السر في نفسه عشرين سنة ، وأصر على أن يقول إن حجباً كبيراً وقع على أصابعه فشمها . واستمر في فراشه أكثر من ثلاثة أسابيع ، ومكث شهرين لا يستطيع أن يعمل بيده شيئاً ، ولم يدر أحد السبب في هذا الأثر الذي تركته هذه الحادثة في أطراف أصابعه على حقيقته .

أما الحادثة الأخرى - وهى من هذا النوع أيضا - فقد كان روسو يلعب مع أحد زملائه<sup>(١)</sup> بالكرة فى الملعب ، فتشاجرا وهما يلعبان ، وتقاتلا معاً ، وفى أثناء القتال ضربه زميله على رأسه ضربة قوية ، كادت تحطم رأسه ، وتخرج نحه ، فوقع على الأرض وقد أغمى عليه ، وبدأ الدم يسيل من شعره ، فتأثر زميله تأثراً شديداً ، وظن أنه قتل ، فألقى بنفسه عليه ، وضمه بحنان بين ذراعيه ، ودموعه تتساقط على خديه ، وصرخ صراخاً عالياً ، فعاقبه روسو بكل قوة ، وأخذ يبكي كما يبكي زميله ، بكاء يدل على شعور كل منهما نحو الآخر ، ثم حاول زميله عبثاً حبس الدم المتدفق . فلما رأى الضارب أن منديلَيْهما لم يكفيا لوقف الدم أسرع به إلى أمه ، فتألمت الأم المسكينة حينما رآته بهذه الحال ، حتى كاد يغمى عليها من شدة التأثر ، ولكنها تمالكت نفسها وضبطت شعورها ، حتى استطاعت أن تغسل جرحه جيداً ، وتنظفه وتضمده ، مستعملة كل ما عرفت من علاج وإسعاف . وقد تأثر روسو حينما رأى الأم تبكي ، وابنها يبكي ، وكان لهذا المنظر أثر كبير فى نفس روسو ، ونظر إليهما مدة ليست بالقصيرة ، نظرته إلى أمه وأخيه . ومن هنا نرى أن روسو كان كثير الشغب والنزاع والحوادث فى غلومته .

وذات يوم ذهب روسو إلى قرية « كَنْفِجْنُون »<sup>(٢)</sup> بمقاطعة « سافوى » بإيطاليا ليتصل بدير كنفجنون . وكان الكهنة فى ذلك الدير معروفين بأرائهم الكاثوليكية ، فأخذ الكاهن ( بونْتْفِير )<sup>(٣)</sup> وأكرمه وأحسن إليه . وأخذ يزوده بأرائه الدينية ، وهى ضد الآراء البروتستانتية التى كان يدين بها روسو ، وفى ذلك يقول : « إني كنت أكثر علماً من الكاهن ( بونْتْفِير ) . ومع أنى كنت ضيفاً محبوباً لم أتمكن

M. Pontverre (٣)

Confignon (٢)

(١) كان يدعى بلنس Plince

من أن أكون عالماً دينياً متضلماً . وقد خجلت أن أطالب هذا الضيف الكريم بالسكوت » . فروسو كان يصفى إلى هذا الكاهن وآرائه ، وادعى بأنه كانت لديه رغبة قوية في دراسة المذهب الكاثوليكي ، وكان من نتيجة الاتصال بهذا الكاهن وإعجابه بروسو أن أرسله إلى « مدام دي وارنر<sup>(١)</sup> » بمدينة « آنسى<sup>(٢)</sup> » لتساعده في أن يتقن نفسه ثقافة دينية قديمة ، فعجب عند رؤيتها كل العجب ؛ إذ وجدها سيدة صغيرة السن ، حسنة القوام ، جميلة الابتسام ، فأعطاهم الرسالة التي أرسلها الكاهن معه ، ويده ترتعد خجلاً وخوفاً . وفي تلك الرسالة عرف الكاهن هذه السيدة بروسو الشاب . فقالت له : « أيها الشاب إنك صغير على هذا التشرّد في هذه السن ، ادخل وأمرهم بأن يقدموا لك طعام الإفطار . وسأتحدث معك فيما بعد » . فشعر روسو بأن الدين الذي تنادى به ، وترشد إليه سيدة كهذه السيدة لا بد أن يؤدي إلى الجنة . فإذا ينبغي أن يفعل الآن ، ولم يجد بعد حرفة من الحرف ، أو مهنة من المهن ، ولم يكن لديه مجال للتمرّن الطويل على أي حرفة ؟ وقد حدث ذات مرة أن نصّح له أحد الحاضرين في أثناء الغداء بالذهاب إلى مدينة « تورين<sup>(٣)</sup> » بإيطاليا ، ليتعلم التعليم الروحي ؛ ليكون واعظاً من الوعاظ ، ومرشداً من المرشدين ، ورجلاً من رجال الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ، فتألم الشاب في البدء ، وبعد بضعة أيام سافر إلى « تورين » وهو مملوء بالرغبات ، ومملوء بالأمال ، وفكر في كثير من المشروعات ، وتخيل سعادة قريبة ، وأعياداً مقبلة ، وأخذ يتخيل كثيراً من الألعاب في الغابات ، وكثيراً من الفواكه اللذيذة في البساتين ، وكثيراً من الحادثات تحت ظل الأشجار ، وكثيراً من دلاء اللبن والقشدة على الجبال ، وفكر في الهدوء والانشراح والسرور بالذهاب إلى حيث لا يعلم الإنسان له مكاناً .

وبعد أن سافر بضعة أيام على قدميه وصل إلى تورين ، وقبل في الدير ، ليدرس دراسة دينية كاثوليكية عالية ، وفتحت له أبواب الدير ثم أقفلت ، وفي ذلك يقول في الجزء الرابع من ( إميل ) متحدثا عن شخص غائب ، وقد صرح في النهاية بأنه ذلك الشخص .

كان روسو وهو شاب في مدينة إيطاليا منفيا من بلاده ، فوجد نفسه في منتهى الفقر والحاجة ، وقد ولد تابعا للمصلح الديني السويسري العظيم « جَن كَثَّانِ (١) » ، ولكن حق روسو الشاب اضطره إلى الهرب من بلاده ، ليعيش في بلاد الغربة ، وليس لديه شيء من المال ، وقد غير مذهبه البروتستانتى من أجل كسرة من الخبز ، فذهب إلى ذلك الدير بتورين . وسمح له بالدخول ، وتعرف فيه بقوم كان يعتقد فيهم كل خير ، ولا يشبهه في أخلاقهم مطلقا ، ولكنه رأى فيما بعد أخلاقا شاذة ، وسلوكا فاسدا ، وشعر بأنه ضحية لهذا الشر ، ووجد هناك أربعة أو خمسة من الأشرار الذين اعتادوا الانتقال من دير إلى دير ، والتنقل في الأديرة بين أسبانيا وإيطاليا ، يدعون في كل مكان أنهم كانوا من اليهود أو المغاربة ، وقد أصبحوا من المسيحيين الغير على المسيحية ، كى يجدوا لهم طعاما ومسكنا ، وارتكبوا من الرذائل وذكروا من الأحاديث الشائنة - وهم في خلوتهم - ما يخالف ما نلقوه من التعليمات الدينية من الكهنة .

ودّ روسو لو ينجو بنفسه من هذا الدير المغلق ، ولكن كيف النجاة ، وما السبيل إليها ؟ أخذ يشكو من الشكوى ، ولكن لم يكثر لشكاته أحد ، واستمر تحت رحمة هؤلاء الطغاة الذين عاملوه كما يعامل المجرم ، لأنه لم يشاركهم في إجرامهم وعيبتهم .

شمر روسو بالقسوة والعنف والظلم ، فتألم الألم كله ، وبكى بكاء المظلوم ، وغضب

(١) John Calvin : ولد سنة ١٥٠٩ ، وتوفى سنة ١٥٦٤ م .

غضب من يشعر بالظلم، غضب من تملكه الظلم، وأخذ يدعو الله ويتوسل بالإنسان، ويشكو لكل من يراه، فلم يسمع له دعاء، ولم يصغ إليه أحد، ولم ير حوله إلا هؤلاء المجرمين الذين يراقبونه عن كثب، ويهينونه ويضحكون منه، يريدون بذلك أن يتبعهم في هفواتهم، ويشاركهم في أخطائهم.

وقد كاد يقضى على هذا الشاب الشقي البائس، لولا أن قبض الله له كاهنا برا رحيا زار هذا الدير لعمل من الأعمال، فوجد روسو الفرصة في استشارته سرا حيث لا يعلم به أحد. وكان الكاهن فقيرا يحتاج هو نفسه إلى المساعدة، ولكن روسو كان أشد حاجة إلى المساعدة من الكاهن، فلم يتردد الكاهن في مساعدته على الفرار من هذا الجوال الموبوء مخاطرأ بنفسه. وبهذه الوسيلة هرب روسو من الدير ليعود إلى الفقر والحاجة، ووجد نفسه وحيدا تائها في شوارع تورين، ووجد نفسه نائما على الطوار، كلقطة الضالة المشردة، ولم يكن في جيبه سوى ثروة ضئيلة إن صح أن نسميها ثروة، وهي عشرون فرنكا. أخذ روسو يقاتل الحياة والحياة تقاتله، وقد ظن أنه فاز بالنصر المبين، بفراره من جو الذل والعبودية، وخروجه إلى الحياة الحرة التي يشتهيها كل العشق، ويحبها كل الحب. وسرعان ما نسي أمر هربه من الدير، وهرب الكاهن الذي سهل له الفرار. ظن روسو أن لديه الذكاء والمهارة في أن يشق طريقه في الحياة بسهولة، ولكن آماله قد ضاعت، وآراءه الخيالية قضت على كل شيء. وفي النهاية وجد مأوى في منزل امرأة فقيرة قادرة للملبس، خشنة العاملة، كثيرة الحلف، تؤوى الخدم الذين يطردون من أعمالهم، في سبيل درهم يدفع أجرا في الليلة الواحدة، وكانت هي وأطفالها الستة ومن يأوى إلى منزلها من الخدم ينامون في حجرة واحدة، ولكنها مع هذا كانت أمينة رقيقة القلب، تعطف على هؤلاء الساكنين بقدر ما تسمح به حالها.

## روسو في عهد الشباب

مكث روسو خالياً من العمل ، متعطلاً ، يجول في الطرق كالضال ، ليمتع نفسه بالمنظر المختلفة . وكان يذهب كل صباح إلى الكنيسة ؛ ليصغى إلى الموسيقى ، واستمر كذلك حتى أنفق كل ما معه من النقود ، وأصبح لا يجد طعاماً ولا وقاية حتى أوشك أن يموت جوعاً ، فتذكر الكاهن الذي أحسن إليه ، ورجع إليه ، فرحب به ، وعطف عليه ، وتذكر ما قام به نحوه من مساعدة ، وتذكر الكاهن ما قام به من إنقاذ لهذا الشاب المسكين .

وكان هذا الكاهن محباً للإنسانية بفطرته ، يعطف على الفقراء مع فقره ، ويؤثرهم على نفسه مع خصائصته ، يشعر بالأمم ، ويشاركهم شعورهم ، فرحب بروسو الشاب كل الترحيب . أقام معه روسو ، وشاركه في معيشته ، وفي دخله المحدود . وقد كان هذا الدخل يكفي اثنين بصعوبة ، وأخذ الكاهن يعلم روسو ويسليه ، يعلمه الصبر وتحمل الآلام ، وأعجب به الكاهن ، وأخذ يسأله ، ويتحدث معه ، فرأى أن قلبه بدأ يتسولاً لحقه من سوء حظ ، وأن الفخر الذي كان يفخر به قد تحول إلى ألم وضعف وحقد ، حتى أصبح ذلك الفتى الضال لا يرى أمامه إلا النفاق والرياء ، والقسوة والظلم بين بني الإنسان ؛ فالتقاء الذي حدث له ساقه إلى الدمار ، ساقه إلى سلوك رجل فظ . رأى الكاهن الخطر الذي يهدق بذلك الشاب المسكين ، ورأى طريق النجاة أمامه ، فبدأ الكاهن يعمل ، وكله رغبة في إنقاذ هذا المسكين وتهذيبه ، وإعادته إلى الفضيلة . ولا عجب ؛ فقد خطفه من قبل ، وسهل له الخروج من برائن الرذيلة . تشجع الكاهن ، ووضع ذلك الغرض أمام عينيه ، وأقدم على إصلاحه بغيرة ، وقاب مملوء بحب الخير ، ولم يضع مجهوده سدى . ولكي يحفظ هذا الشاب المسكين البائس من الموت للأبى الذي كاد يهدده أخذ يحيي فيه الأمل ،

ويذكر له رأيه الحسن عنه ، ويبين له المستقبل السعيد الذي ينتظره إذا استعمل تلك المواهب الفطرية التي وهبها الله استعمالا حقا . وبدأ يشجعه بذكر الأعمال النبيلة التي قام بها غيره ، وأخذ يذكر له قصصا عن أعمال البطولة والعظمة والنبيل ، وأحيا فيه الرغبة في القيام بمثل تلك الأعمال النبيلة ، وبدأ يستدرجه ويوحى إليه ، ويسير معه بالتدرج ، وينتقل به من حياة العطل إلى حياة العمل ، ومن حياة التشرذم إلى الحياة المنظمة ، ومن حياة الرذيلة إلى حياة الفضيلة ، واختار له بعض الكتب وأحسن اختيارها ، وادعى أنه في حاجة إلى أن يقتبس منها أشياء عيناها له ، وطلب منه قراءتها وكتابتها . وبهذه الوسيلة غذى فيه الشعور النبيل ، وأخذ قلبه يعود إلى الحياة الفطرية ، وعلمه بطريق غير مباشر ، بطريق الإيحاء ، قراءة هذه الكتب ، والانتفاع بما فيها من جواهر وآراء وأفكار ومثل عالية . وبعد أن كان روسو يعتقد أنه لا يصلح لشيء مطلقا أخذ يشعر بنفسه ، ويحترمها بعد أن كان يحقرها ، ويشق بنفسه بعد أن كان قليل الثقة بها .

وقد حدث ذات مرة أن هذا الكاهن الكريم حاول ، أن يرفع روسو من الوهدة التي سقط فيها من حيث لا يشعر روسو بأن هذا الكاهن الخازم يريد أن يعطيه درسا بطريقة عملية ، وقد كان الناس يثقون بالكاهن ، ويعطونه الصدقات لتوزيعها على من يستحقها من الفقراء والمساكين . وذات يوم حضر أحد الأغنياء ، وأعطاه شيئا من المال لتوزيعه على المحتاجين ، فطلب روسو شيئا من هذه الصدقة ، أشده فقره وحاجته ، فقال له الكاهن : «أيها الأخ إنك تنسب إلي ، وأنا مسئول عنك . ويجب ألا أمس نقودا وضعت أمانة في يدي » . ثم منحه من ماله الخاص ما شاء من المال . فدرس عملي كهذا الدرس قد ترك أثرا أويا في قلب روسو المسكين البائس الضال . وقد اعترف روسو بأن هذا الكاهن المحسن كان له كل الفضل في إنقاذه من حياة التشرذم والبطالة إلى حياة العمل والنظام ، وأنقذه من تلك الحياة الشقية

التمسة؛ حياة البؤس والشقاء، إلى حياة العمل والاستقامة . وقد كان لهذا الكاهن أثر كبير في تثقيفه وتهذيبه ؛ فقد تعلم منه الإخلاص والصرامة ، وحب الإنسانية، وكرهه الرياء والنفاق، وعوده أن يقول ما يعتقد ، وأن تكون أفعاله متفقة مع أقواله ، وأن يساعد من يحتاج إلى المساعدة . وقد صرح روسو بأن حياة هذا الكاهن كانت المثل الأعلى له ؛ فلا عجب إذا أعجب به روسو ، وزاد إعجابه به يوماً بعد يوم، وملك قلبه بشفقته النادرة، وعوده حسن التبصر والتفكير ، والعطف على الفقير .

وقد كان روسو يكره الأغنياء ، ويحقد على الناجحين في الحياة ، فكان شعوره ، مضادا لشعورهم ، كأن ثروة الأغنياء قد أخذت منه عنوة . وكان نجاح الناجحين أو سعادتهم قد اغتصبت منه ؛ فكان سريع التأثر ، كثير الفخر والتكبر ، كثير الحقد على غيره ، فأخذ ذلك الكاهن يهذب قلبه ، ويهذب شعوره نحو غيره، بدون أن يمس شعوره، وعلوه أن يفكر في جاره كما يفكر في نفسه، ويعنى بالحقائق، ويترك المظاهر ، ويتألم لآلام الناس ، ويفرح لأفراحهم ، ولا يحقد عليهم ، وبث في نفسه أن هدوء الضمير هو السعادة، وأن الرجل الذي يتماق بالحياة كل التعلق ، ويفكر فيها كل التفكير أقل الناس تمتعا بالحياة ، وأن الرجل الذي يجعل كل همه في أن يكون سعيداً هو أشقى الناس دائماً . فقد روسو هذه الآراء غريبة، وأخذ يسأل الكاهن : من يستطيع أن يكون سعيداً ؟

فأجابه بنغمة قوية تركت أثراً كبيراً في نفسه قائلاً : أنا سعيد مع فقري ، وأنت سعيد مع فقرك وبعذك عن بلادك . وإذا فكرت كما أفكر عرفت كيف تكون سعيداً . وأخذ يشرح له قيمة الحياة .

وفي الصباح التالي استيقظ الكاهن والفتى مبكرين ، وذهبا إلى قمة الجبل المطلّة على نهر « يو » ، وأخذ الكاهن يتحدث معه عن العقيدة ويقول: «إني أحب الحقيقة ، وأبحث عن الحقيقة ، ولا يمكنني أن أجد الحقيقة . أرني الحقيقة كي أتمسك بها .» وأخذا يتناقشان مناقشة مستفيضة عن الفضيلة والسعادة ، والحقيقة والحياة . وقد كان لهذا النوع من الدراسة والنقاش وقراءة سير العظماء أثر كبير في حياة روسو في ذلك العهد ؛ عهد الشباب . وأخذ يدرس الدين ، ويقتبس كثيراً من كلام الآباء الروحيين ، ويدرس التاريخ والطبيعة ، وعلم النبات والحياة ، حتى يقنع نفسه ورغبته . وما كان أشد رغبته في البحث والاطلاع ؛ للوصول إلى الحقيقة .

## روسو والسيدة الإيطالية

أنفق روسو كل ما كان معه من نقود ، وحاول أن يجد عملاً بكل وسيلة من الوسائل . وبينما كان يبحث عن عمل إذ رأى وهو في الطريق سيدة إيطالية جميلة تعمل في حانوت ، فذهب إليها وشرح لها حاله ، وكانت تدعى (مدام بآسيل<sup>(١)</sup>) ، فتأملت له كل الألم ، وعظمت عليه كل العطف ، وكافته العمل في الحانوت من أجل ملبسه ومأكله ، وقد بذل روسو كل مافي وسعه من جهد ، لترضى عنه تلك السيدة ، وقد أحبها حباً صامتاً ، واستمر يعمل في حانوتها حتى عاد زوجها من غيابه ، وكان شديد الغيرة ، فاعترض على وجود هذا الشاب الأجنبي في بيته ، وطرده شرطردة ، وأخذ يهدده ، فرثت السيدة لحاله ، وأوجدت له عملاً لدى (مدام دي فرّسييليز<sup>(٢)</sup>) ، وهي أرملة غنية من الأسر المعروفة . قبل روسو شاكرًا أن يكون خادماً في منزلها ،

ولكن لسوء حظه توفيت تلك السيدة بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وحدثت بعد وفاتها  
حادثة تحتاج إلى كثير من البحث والنقاش ، وقد ذكر تلك الحادثة في اعترافه ،  
وقص تلك القصة وكله خجل وحزن ؛ فقد وجد بعد وفاة سيده أن شريطا حريريا  
وردى اللون فقد ، وبالبحث عن هذا الشريط المفقود وجد بين أدوات روسو ،  
فسئل : من أين أخذه ؟ فأجاب بأن الخادم ( مَرِيُون <sup>(١)</sup> ) -وهي فتاة ذات جمال تخدم  
في المنزل- أعطته هذا الشريط ، واتهم الخادم بالسرقة ظلما أمام الحاضرين من السيدات  
والسادة والخدم ، وتمسك بهذا الاتهام الكاذب ، فأحضرت الخادم ، وسئلت عما نسب  
إليها من السرقة ، وقابلت روسو وجهاً لوجه ، فأكد بكل جسارة وجراءة أنها هي  
التي سرقت الشريط ، فصمتت وسكتت ، ولم تُجِرْ جوابا ، وتنفست الصعداء ،  
ونظرت إليه نظرة مبكية كأنها تتساءل : هل أنا سرقت ؟ فكرر اتهامه لها بالباطل ،  
وأنكرت تلك التهمة ، وقالت والدموع تتساقط من عينيها : « كنت أظن يا روسو  
أنك طاهر القلب ، طيب السريرة ، ولكنك جعلتني شقية حزينة ، ولن أضع نفسي  
موضعك ، ولن أفعل ما فعلت » .

وبعد أربعين سنة من تلك الحادثة اعترف روسو بالسرقة ، وكتب عن نفسه يقول :  
« لقد أزعجتني هذه الحادثة المؤلمة ، وأقلقت مضجعي كثيرا ، فطلما أرقت ولازمني  
السهاد في كثير من الليالي ، ورأيت تلك الفتاة البريئة المسكينة ماثلة في خيالي تلومني  
على جرئتي ؛ كأنها كانت بالأمس . وإن قلبي ينفطر كلما تذكرت مَرِيُون ، ولكن حضور  
كثير من الرجال منعني ذكر الحقيقة ؛ فإنني لم أخش العقوبة ، ولكنني خشيت  
العار والفضيحة أمام الحاضرين . لقد خفت العار والخجل أكثر من الموت ، وأكثر

من الجريمة ، وأكثرت من أى شىء آخر . لقد خشيت أن تعرف السرقة ، ويعلم الجميع بها علانية فى حضورى ، فأدعى اللص الكاذب التمام . حقا إن حجبى لتلك الفتاة المسكينة كان سببا فى اتهامها وهى بريئة ؛ فقد كانت فى ذاكرتى دائما ، وحينما سئلت عن السرقة رميت التهمة على أول شخص حضر فى ذاكرتى . وقد كاد قلبى يتمزق حينما أحضرت لتسأل عن التهمة ، ولم يوبخنى ضميرى فى هذه اللحظة خوفا من العار ، وكنت أتمنى أن أدفن نفسى فى أعماق الأرض ؛ فقد تملكنى الخجل ، وخفت الفضيحة » .

فروسو يعترف بالسرقة ، ولكنه يعترف متأخرا ، ويعترف بأن الخوف من الفضيحة والعار هو الذى أدى إلى اتهامه تلك الفتاة البريئة المسكينة ، وقد أخذ ضميره يؤنبه على كذبه فى دعواه حتى نهاية حياته ، وكان يخيل إليه فى تلك الليالى الطويلة التى يصيبه الأرق فيها أن تلك الفتاة البائسة حاضرة أمامه تعيره ، وتعاتبه ؛ لاتهامها بذنب لم ترتكبه ، ولم تقترفه . ويحسب روسو أن هذا التوبيخ للضمير قد كفر عن خطيئته فى اتهامه تلك الفقيرة المظلومة التى اتهمت ظلما وعدوانا . ومن هذا نرى صراحة روسو فى الحكم على نفسه ، وكيف يؤنبه ضميره على الخطيئة ، وكيف كانت حياته بعد شبابيه .

وقد قيل فى رواية أخرى إن السرقة لم تكن شريطا من الأشرطة ؛ بل كانت قطعة ثمينة من الماس . وليس هناك ما يثبت أنها قطعة من الماس ؛ فقد ذكر فى اعترافاته أنها شريط أعجب به فأخذه .

لقد ماتت السيدة ، وترك روسو منزلها بعد تلك الحادثة المشثومة ، وأصبح لا عمل له ولا مسكن ، فعاد ليسكن مع تلك السيدة العجوز فى مسكنها القذر مع

أطفالها الستة ، وقد كانت بذينة اللسان ، ولكنها كانت رقيقة القلب . مكث لديها ستة أسابيع يقضى نهاره ضالا مشردا في الطريق . وأخيرا وجد نفسه خادما للمائدة في بيت رجل من الأسر العريقة في المجد ، وهو ( كُونْت جُونُون <sup>(١)</sup> ) ، فعامله معاملة حسنة ، فيها كثير من العطف والشفقة ، وقد تكرم ابن الكونت ، وعلم روسو اللغة اللاتينية ، وادعى روسو أنه أحب ابنة سيده ، فكان يخدمها بإخلاص ، وينتظر أى إشارة منها ، ويقف أمامها ليلاحظ كل ما تفعله ، منتظرا أى أمر تأمر به ، مترقبا اللحظة التى تود فيها تغيير إنائها . وقد ظن أن له منزلة فى قلبها ، مع أنها لم تنظر إليه نظرة واحدة ، ولم تكلمه كلمة تدل على الحب . وذات مرة كان يحوم حول حجرتها فنهرته وزجرته وعنفته .

وقد وجد روسو فى هذا القصر فرصة ثمينة للتربية والثقافة والتهديب ، ولكنه كان كثير التغيير والتقلب ؛ فقد زاره صديق قديم <sup>(٢)</sup> من جنيف ، فرغب فى صحبته ، وأخذ يلتمس سببا يستند إليه فى ترك خدمة سيده الذى أحسن إليه . ولا عجب ؛ فروسو الشاب لا يحب الاستقرار فى أى مكان ، ولا الثبات فى أى عمل من الأعمال . ونسى جميل سيده ، ومعروف أسرته ، وترك الفرصة التى أتاحت له فى تعلم اللاتينية ؛ تلك الفرصة الذهبية التى منحت له ليثقف نفسه ، ويتعلم ويعمل فى تلك البيئة المثقفة الإيطالية ؛ فسيده كان أديبا مثقفا ، والابن <sup>(٣)</sup> كان متعلما مهذبا . وأظهر روسو مقدرة ونجاحا فى العلم ، وفى اللغتين الإيطالية واللاتينية ، ولكنه أهمل ما عليه من واجبات فى منزل سيده ، واقد أحبته الأسرة لذكائه وآرائه ، ولكن الخدم حقدوا عليه ، وغاروا منه ، لحب الأسرة له ، وأبغضوه لإهماله ، وقلة تفكيره

(١) The Count of Gouvon (٢) اسمه ( باكل ) Bacle

(٣) Abbe de Gouvon

فيا عليه من واجب الخدم ، وأخذوا يوبخونه من وقت لآخر ، ولكن لم يجد فيه نصح ولا توبيخ ، وترك بيت سيده غير آسف عليه ، وفكر في رحلة جميلة في الجبال ، والغابات والحقول والأنهار ، وتذكر حياة الطفولة كلها ، وفكر في الحرية ولذتها ، والسفر مع صديق يماثله في سنه وذوقه ، وليس لديه واجب يقوم به . وليس لأحد الحق في الضغط عليه . ولديه الحرية في أن يذهب حيث شاء ، ويقم حيث أراد . وتغلب عليه مرح الشباب ، وسيطرت عليه محبة الحرية ، ولعب به الخيال ، واعتقد أن من الجنون أن يضحي بهذه الرحلة وما فيها من مسرة ، في سبيل مستقبل ضعيف بطيء مشكوك فيه .

لهذه التخيلات والأفكار التي خطرت بنفسه سافر مع صديقه ، وسارا نحو سويسرة موطنهما المحبوب ، مبهجين مرحين ، بقلبين مطمئنين ، وقد فكرا في الوسيلة التي بها يحصلان على معيشتهما في أثناء سفرهما . ولم يكن لديهما ما يكفيهما في هذه الرحلة الطويلة من ( بيدمونت<sup>(١)</sup> ) بإيطاليا إلى جنيف بسويسرة من طعام أو لباس أو مال .

من هذا نرى أن روسو كان كثير الأحلام والتخيلات ، كثير التغير والتقلب ، لا يترث في حكم ، ولا يقر بمجمل ، يسير مع خياله وهواه ، يعيش في عالم الخيال لا عالم الحقيقة ، ويرتكب أشياء تدل على الحق وعدم التفكير ، ومع هذا فقد كان فائق الذكاء ، عبقريا ، محبا للطبيعة ، حيا الضمير ، قوى العاطفة ، واضح الحجج ، عذب الأسلوب . ولا غرابة ؛ فقد كان لكتابته أثر كبير في العالم الفرنسي والثورة الفرنسية بعد موته .

## روسو بمدينة أنسي مع مدام دي وارنر

وأخيرا وصل إلى مدينة أنسي<sup>(١)</sup> سنة ١٧٢٩م مفلسا، ممزق الثياب، سيء الحال، وقد بلغ من العمر الآن ثمانى عشرة سنة . فألقى بنفسه مرة أخرى في منزل تلك السيدة المحسنة التى آوته منذ ثمانية عشر شهرا ، وهى (مدام دي وارنر<sup>(٢)</sup>) ، وقرع الباب وهو يرتعد ، وقلبه ينبض ، فاستقبلته السيدة استقبالا حسنا كله عطف، وانحنى عند رؤيتها ، وقبّل يدها وهو فرح مسرور ، ثم مكث في هذا المنزل ، وعومل فيه كما يعامل الإنسان في منزله .

وكانت هذه السيدة تبلغ من العمر ثمانيا وعشرين سنة ، قصيرة القامة ، ممتلئة الجسم ، جميلة الصورة ، حسنة الهندام ، زرقاء العينين ، جذابة فى ابتسامتها ، ولا نظير لها فى الجمال فى عين روسو . وكان زوجها<sup>(٣)</sup> أكبر منها سنا ، فلم تعش معه ، واتخذت لها مسكنا فى قرية<sup>(٤)</sup> على بحيرة ليّمان<sup>(٥)</sup> . وقد حدث أن ملك سردينية<sup>(٦)</sup> ذهب إلى هناك فغيرت مذهبها الدينى ، واعتنقت المذهب الكاثوليكى ، فسرّ الملك بها ، وأعجب بعملها ، وأمر لها بمعايش قدره ألفا فرنك . والحق أن (مدام دي وارنر) كانت قليلة التمسك بالدين ، تعنى بالمظاهر الخلقية ، والناحية الشكالية ، وتتظاهر بالفضيلة ، ولا تعمل بمبادئها . ومع هذا كانت تعطف على الفقراء ، وتحب المساكين ، وتتصدق على العوزين ، وتحسن إلى المحرومين . وقد عرفت بالدواعى ، وسهولة الطبع ، والمهارة فى العمل ، ولها كثير من الآراء الفلسفية . ومع شدة ذكائها كان من السهل

(١) Anncy (٢) Madame de Warens

(٣) البارون دي وارنر : Baron de Warens (٤) هي قرية : Evian

(٥) Lemnan (٦) Sardinia

التأثير فيها ، وقد ورثت عن أبيها حب الكيمياء ، فقضت كثيرا من وقتها في دراستها ، وأنفقت الكثير من مالها لتحليل بعض العقاقير والمواد الكيميائية .

استمر روسو ببيتها بمدينة آنسى<sup>(١)</sup> سعيدا بحياته ، يقرأ ويدرس ، ويخدم هذه السيدة ، ويعدها أمثاله في حديثه ، وتعهده ابنا لها ، يحبها وتحبه . وكان يلجأ إلى هذا البيت كثير من السائلين والزائرين ، فتكرمهم هذه السيدة كل الإكرام ، فيتذمر روسو ؛ لأنه كان يود لو يحتكر البيت لنفسه ، ويريد أن يجعل انتباه سيدته خاصا به وحده ، فكان محبا لنفسه ، يشكرومى حضر إلى البيت زائر ، ويلمن الضيوف بعد ذهابهم ومغادرتهم ، حتى تفرق السيدة في الضحك ، وتنسكب الدموع على خديها .

كان روسو يقرأ معها كتب فواتير<sup>(٢)</sup> ، وغيرها من الكتب ، ويستمع إلى حديثها إذا تكلمت ، ويصغى إليها إذا غنت ، ويعجب بها إذا لعبت على الكمان . فلا غرابة إذا قلنا إنه كان في هذه المدة سعيدا كل السعادة ، منعا كل التمتع ، ولكن هذه الحياة اللذيذة الساحرة لم تطل ؛ فهو الآن شاب ، ويجب أن يعتمد على نفسه ، في كسب عيشه بهرق جبينه .

وذات يوم حضر قريب من أقارب تلك السيدة لزيارتها فرأى روسو ، وسئل عن رأيه فيه ، فأجاب في النهاية : إن الشاب محدود الذكاء ، جاهل جدا ، لا يصلح إلا لأن يكون كاهنا في إحدى القرى . ومع ذلك فهذا المركز المتواضع يحتاج صاحبه إلى دراية تامة باللغة اللاتينية أكثر مما كان يعرفه روسو .

(١) حتى سنة ١٧٣١ م .

(٢) Voltaire ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ م ) : كاتب فرنسي قدير ، وشاعر كبير ، فوى الأسلوب ،

ويعد من قادة الفكر .

فأرسلته (مدام دي وارنر) إلى إحدى المدارس<sup>(١)</sup> ليتعلم اللغة اللاتينية حتى يجيدها ، فشمع الشاب بأنه طرد من الجنة ، واستمر قاق البال ، ولم يظهر نجاحا باهرا ، بل سار سيرا بطيئا ، ولم يعجب به الأساتذة في هذه المدرسة . وبعد أن بذلوا معه كل مجهود ممكن قرروا أنه لا يصلح لشيء ، ولا يمكنه أن يكون كاهنا .

فعاد روسو من حيث أتى ، عاد إلى بيت (مدام دي وارنر) ، وبرهن على أنه يجيد الصِّير وادب النَّاي أكثر من إجادته اللغة اللاتينية. وقضى معظم الشتاء مع أستاذ<sup>(٢)</sup> موسيقىٍ للكنيسة ، يجيد الموسيقى ، ويعيش غير بعيد من البيت الذي يسكنه روسو. ولكن هذا الأستاذ كان كثير النزاع والشجار مع غيره ، محبا لشرب الخمر ، فعزم على أن يغادر القرية سرًّا ، وانفق مع تلميذه روسو على أن يصاحبه في سفره إلى مدينة (ليون)<sup>(٣)</sup> . سافرا معا حتى وصلا إلى ليون ، وكان مظهرها مغريا ، فوجدا كرما من الأهلين في أثناء رحلتها . وبينما كانا يسيران في (ليون) إذ أصابت الأستاذ نوبة شديدة ، فوقع على الأرض ، وقد أغمى عليه ، فاستغاث روسو بمن حوله ، واستنجد بهم في طلب المعونة ، وأعطاهم اسم النُّزل الذي ينزل به أستاذه . وبينما كان الجمع المحتشد مشغولا بإسماع هذا الرجل المسكين ، وإنقاذ حياته ، إذ اختفى روسو وهرب ، وجرى من حيث لا يراه ولا يشعر به أحد ، وترك أستاذه وصديقه للقضاء والقدر ، ولم يشعر بأنه قصر في حق صديقه عندما تركه وفرًّا ، لم يشعر بأنه أهمله وحده غريبا ملقى على الأرض ، ولم يراع واجب الصحبة والصدقة ، وقد ظن حينها هرب أنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر مما فعل . وماذا فعل ؟ إنه استغاث بمن حوله ،

(١) هي مدرسة سانت لازار : St Lazare (٢) كان هو الأستاذ M. Le Maître

Lyons (٣)

فحضر المستمعون ، واحتشدوا ليروا ماذا حدث . ولكن بعد سنوات تذكر الحادثة ، وتذكر فراره من صديقه وأستاذه ، وتركه وحده في بلد الغربة ، ووبخه ضميره على ما ارتكب من إهمال لواجب الصداقة وقت الشدة . وفي ذلك يقول : « إن ضمائرنا لا توبخنا حينما نرتكب الخطأ . ولكنها توبخنا حينما ينقضى الوقت ، وتذكر ما ارتكبناه ، ولا نستطيع أن ننساه » .

وبعد أن وجد الحياة قاسية في ليون تبنى لوي يعود إلى مدينة آنسي<sup>(١)</sup> حيث كانت ( مدام دي وارينز ) تقيم ، ثم عاد ، ولكن لسوء حظه لم يجدها هناك ، وعلم أنها سافرت ، وتركت تلك البلدة ، ولم يعرف أحد أين تقيم ، أو متى تعود من سفرها . ولما كان معسرا شديد الحاجة ، اضطر أن يسكن مع شاب فرنسي كان قد حضر إلى ( آنسي ) منذ سنة فقيرا معدما ، ولكن لأخلاقه وآدابه ، وحسن محضه وحديثه ، مع مهارته الموسيقية ملك قلوب السكان ، وكانت له منزلة كبيرة في نفوسهم فأكرموا وفادته ، وعاش في رغد من العيش .

مضى وقت ليس بالتصير ، ولم تحضر السيدة ، ولم يسمع عنها شيء . وحضرت خادم من خدمها لتبحث عن سيدتها ، فلم تجدها . فرجت روسو أن يصحبها ويرافقها إلى بيت أبيها في قرية ( فريبورج<sup>(٢)</sup> )؛ لأنها مضطرة إلى السفر راجلة . فوافقها روسو ، وسافر الاثنان معا على الأقدام . وفي أثناء سيرهما مرّا بقرية ( نيون<sup>(٣)</sup> ) حيث يعيش أبو روسو . وجد روسو الفرصة سانحة لزيارة أبيه ، فزاره بعد طول الفراق ، وتعاثا عنقا حارًا ، وبكيا بكاء مرًا حينما أخذ الابن يخرج ويفارق أباه بعد اللقاء . وقد دعت زوجته أبيه أن يمكث حتى يستريح ، ولكنها دعت بلسانها ، ولم تدعه بقلبها ، ولم تاج عليه في طلبها ،

ثم استأنف هو ورفيقته السير حتى وصلا إلى قرية (فريبزج) موطن الخادم ، فذهبا إلى بيت أسرتهما ، فلم يستقبله أبوها استقبالا يشجعه على البقاء ، بل استقبله استقبالا باردا كانه فتور ، فخرج هائما في طريقه ، وهو خاوي الوفاض ، لا يدري أين يذهب ، وليس معه شيء . يستعين به على المعيشة أو السكنى . استمر في رحلته حتى وصل إلى مدينة لوزان<sup>(١)</sup> ، فبدأ الأمل يتسرب إلى نفسه ، وحسب أن في استطاعته أن يحاكي أستاذه في الموسيqa ، أستاذه الذي تركه في ليون وهرب منه وهو مغنى عليه . وادعى أنه قادر على تعليم الموسيqa ، وأنه تعلمها في باريس ، وأنه آت من باريس ، وهذا كله ادعاء باطل ، بعيد عن الحقيقة ؛ فهو لا يستطيع أن يعلم الموسيqa ، ولم يتعلمها في باريس ؛ لأنه لم ير باريس بعد ، وكل ما هنالك أنه يميل إليها ، يميل إلى استماعها ، ولكنه لا يجيدها ، لأنه لم يدرسها دراسة منظمة ، بل أخذ دروسا متقطعة ، ولم يتفرغ لتعلمها .

وبكل جسارة وجرأة دخل تزلًا في لوزان ، وليس في جيبه فلس واحد ، فلم يشتبه فيه أحد ، واستقبل استقبالا عاديا ، وأخبر صاحب النزل خبره ، فصدقه ولم يشك في قوله ، وسمح له بالإقامة لطيبة قلبه ، وحسن سيرته ، ونصح له أن يكتفى بأكلة واحدة في اليوم ، ويدفع ثمن الطعام حينما يبسر الله له الحال . وقد سأل روسو في اعترافاته كثيرا من الأسئلة ؛ فقد وجد كثيرا من الطيبة في الناس في شبابه ، وقليلًا منها في كهولته وشيخوخته ، ولم يدر لذلك سببا ، وطفق يسأل : أنغير الإنسان ، أم تغيرت طبيعة الشعوب ؟ والحق أن الإنسان لم يتغير ، وطبيعة الشعوب لم تتغير ، ولكن البيئة التي كان يعيش فيها هي التي تغيرت ، فالبيئة التي

كان يتصل بها في طفولته تختلف كل الاختلاف عن البيئة التي كان يتصل بها في شيخوخته؛ فقد كان في طفولته فقيرا يعيش في بيثة الفقراء ، وفي شيخوخته كان فقيرا متصلا بالعظماء والأشراف ، يخطبون وده ، ويتمنون الاتصال به ، مع أنه كان ينتقدم انتقادا سرا ، ينتقدم في حياتهم ومظاهرهم ، في ترفهم وصلفهم ، ينتقدم في استعبادهم للفقراء ، وقسوتهم في معاملتهم . كتب كثيرا ضد الأغنياء ، في وقت كانوا يعطون عليه كل العطف ، ويقدمون له ما يحتاج إليه من معونة . وكثيرا ما كان يرفض الإحسان إليه من المعجبين به من الأشراف . ولاعجب؛ فقد كان روسو ابن الطبيعة، وعدو المدنية والمظاهر الكاذبة ، والمنادي بالحرية والعدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الأغنياء والفقراء ، والإخاء بين الناس .

### روسو يعلم الموسيقى :

بدأ روسو يعلم الموسيقى وهو جاهل بها كل الجهل ، وأعلن عن نفسه أنه مؤلف موسيقى في حين أنه لا يستطيع أن يعرف نعمة موسيقية ، كل هذا في سبيل العيش والحياة . ولانكر أنه كان مولعا بفطرتة بالموسيقى ، ولكن لم تتح له الفرصة الكافية لتعلمها وإجادتها من قبل . وقد تنقش وشف حبا بصديق فرنسي يجيد الموسيقى<sup>(١)</sup> كان له أثر كبير في نفسه ، وتعرف بموسيقى آخر يدعى محلا للغناء والطرب ، وتقدم<sup>(٢)</sup> إليه مستعدا لتأليف قطعة موسيقية لحفلة من الحفلات ، فوافقه المدير ، وأعد روسو القطعة في ستة عشر يوما ، واعتقد أنها تصاح لأن تكون نموذجاً لسكان الأرض، بل لسكان القمر ، ولكن خاب ظنه عندما سمعها المستمعون ؛ فقد ماتوا من الضحك

(١) هو فنور دي فيلنوف Venture de Villeneuve

(٢) وسمى نفسه فوسور دي فيلنوف : Vaussore de Villeneuve

حينما سمعوها ، وفتحوا أعينهم مستغربين ، وتمنوا لو يستطيعون أن يسدوا آذانهم من هذه الضوضاء التي يسمعونها . وطلق روسو أمام الجمهور ، والعرق يتصبب من جبينه ، ولم يجرؤ على الهرب . وقد سمع من حوله من المساعدين يتهامسون . فقال أحدهم : إن هذا لا يطاق . وقال آخر : ما هذه الموسيقى؟ وقال ثالث : إن هذه ليست بموسيقا ، ولكنها أصوات مزعجة . وسمع في الملهى كثير من الضحك فى كل ناحية من النواحي ، وأخذ المستمعون يهتفون ساخرين بهذا الذوق الجميل ، مؤكدين له أنه موسيقى عالمى . كل هذا فى هزه وسخرية .

ولكن روسو يستحق كل هذه الإهانة ؛ فقد أدم على عمل لا يجيده ، وادعى ما ليس فيه ، وعرف كل إنسان فى لوزان من هذا الموسيقى المدعى . ولكنه يريد أن يعيش من عرق جبينه ، فماذا يفعل ؟ لقد وجد فى النهاية قليلا من التلاميذ يعلمهم الموسيقى ، تلاميذ يعرفون أكثر منه . ولكن بثأرتة أظهر تقدما فى الموسيقى ، واستطاع أن يعيش ، ويدفع أجرة النزل وثمان الطعام .

### سفره فى رحلة إلى باريس :

وفى فصل الربيع سنة ١٧٣١م دخل نزلًا فى بلدة بُودرى<sup>(١)</sup> ، فوجد قسيسا وقورا طويل الذقن ، يتفاهم مع صاحب النزل بالإشارة ، ويتحدث بلغة لم يستطع أحد أن يفهمها إلا روسو ، وقد أرسل من بيت المقدس ليجمع تبرعات لمشروع دينى ؛ هو تجديد الضريح المقدس ، وقد دافع عن هذا المشروع كثيرون ، وجمع من أجله كثيرون فى أوقات مختلفة فى سويسرة . وامجز هذا القسيس عن التخاطب والتفاهم مع غيره طلب من روسو أن يكون مترجما له وكاتم سر ، فقبل روسو لشدة حاجته ،

وأخذ هذا الأب<sup>(١)</sup> وروسو ينتقلان من بلد إلى بلد ، ومن جهة إلى أخرى عدة أسابيع ، حتى وصلا إلى بلدة ( سُولُور<sup>(٢)</sup> ) ، وكان ذلك من حسن حظ روسو ؛ فقد نزل الأب بمنزل السفير الفرنسي ، فرأى معه روسو ، فأعجب به الإعجاب كله ، وأخذ يسأله كثيرا من الأسئلة ، وعرف قصته كلها ، فمظف عليه ، ووضعته تحت عنايته ، وحاطه برعايته ، ثم أرسله السفير بعد أيام إلى باريس ؛ ليرافق ضابطا صغيرا في سفره إليها ، فترك الريف الجميل بما فيه من غابات واسعة ، وأنهار متدفقة ، وطيور مغردة ، وسماء صافية ، وشمس ساطعة . ترك هذه الحياة الطبيعية الجميلة التي كان يعيشها قلبه ، وتميل إليها حواسه ، تركها وهو مملوء أسفا ، وذهب إلى باريس كارها متألما ؛ لما كان فيها في ذلك العصر المظلم من شوارع ضيقة ، ومنازل قذرة ، وما فيها من فقر بين أهلها ، وصخب وصياح في طرقها . وصل روسو إلى باريس ، فأخذ يسأل نفسه : أهذه هي باريس التي كنت أحلم في شبابي بجمالها ، وكنت أظن أن قصورها أجل القصور ، وأن شوارعها مرصوفة بالمرمر ، وكنت أحلم ليلا ونهارا بجلالها وجمالها ، وكنت أتمنى اليوم الذي أتمتع فيه برؤيتها وزيارتها ؟

استقبل روسو والضابط الصغير الذي يرافقه استقبالا مؤثرا من الأسرة التي أرسل إليها ، وقد وجد روسو في تلك الأسرة آدابا تختلف عن آداب الريف ، وأخلاقا رقيقة ملائمة للمجتمع ، تختلف عما اعتاده في الريف ، وبيئة تخالف البيئة الفروية ، فأنته هذه التحيات الرقيقة ، وهذه الآداب العالية ما رآه من قذارة في شوارع باريس ، وعوضت عليه ما فقد من جمال في الطبيعة . وحسب روسو أن حظه قد تغير ،

(١) هو الأب أنانسياس بولوس : Father Athanasius Paulus (٢) Soleure

وأن له تأثيرا في قلب كل سيدة تراه ؛ لجماله وقوة جاذبيته وشخصيته ، على الرغم مما جبل عليه من حياء وخجل ، واضطراب عند الكلام في المجتمعات . وسرعان ما عرف أن الفرنسيين في هذا العصر لا يقصدون ما يقولون ، ولا يقولون ما يعتقدون ، ولا يعتقدون ما يقولون ، وحينما يتكلمون معك يوجهون إليك كل اهتمامهم ، ويفكرون فيك كل التفكير ، فإذا ما ابتعدت عنهم نسواك كل النسيان ؛ فالبعيد عن أعينهم بعيد عن قلوبهم .

سُم روسو بباريس ، وسُم مظاهرها ، وقد سمع أن ( مدام دي وارينز ) عادت إلى بيتها في آنسي ، فودع باريس ؛ ليعود إلى تلك البلدة التي يحبها . عاد مبتهجا ، وسافر فرحاً مسرورا . عاد إلى الريف ، وكله مرح ونشاط ؛ لأنه يحب هواء الريف ، وجمال الريف ، والحرية الريفية . وطلق يفتن وهو سائر على قدميه ، ينتقل من قرية إلى أخرى ، يتخيل ما يتخيله من الخيالات العذبة ، ويتخيل ما يتخيله من أحلام اليقظة ، وهو سائر بين الغابات والحقول ، يصنئ إلى الطيور وهي تغرد على غصون الأشجار ، و يقدر الطبيعة وما فيها من جمال .

### حالة الفقراء في عصره :

وقد حدثت له حادثة في أثناء رحلته أحييت فيه قوة الكتابة للدفاع عن الفقراء البائسين في فرنسا في القرن الثامن عشر ؛ فقد ضل الطريق وهو مسافر ، وبلغ به الجوع والتعب كل مبلغ ، فدخل كوخا من أكواخ الفلاحين ، ورجا صاحبه شيئا من الطعام ، فقدم له الفلاح لبنا خائرا ، وقطعة جافة من خبز الشعير ، فشرب روسو اللبن الرائب ، واتهم الخبز الجاف شاكرا ، ولم يبق على شيء من الطعام ، ولكن أبكى

هذا النوع من الطعام شابا مرهقا جائعا في هذا السفر الطويل ؟ نظر إليه الفلاح نظرة فاحصة أدرك منها حقيقة أمره، وشعر أنه مازال جائعا، واعتقد أنه أمين لا ينتظر أن يخونه أو يبلغ عنه، فنهض الفلاح في الحال، وغاب قليلا، ثم رجع ومعه قطعة من الخبز اللذيذ، وأخرى من لحم الخنزير، وثلاثة من العجة ، وزجاجة من الخمر الذي يحبه روسو ، فأكل روسو ما لذ وطاب ، وشرب حتى شبع ، ثم أراد أن يدفع الثمن ، فرفض صاحب الكوخ ، وبدت عليه علامات الخوف والاضطراب ، ولم يدر روسو لذلك سببا ، ثم عرف منه أنه أخفى الخمر والخبز خوفا من الضرائب الثقيلة ، وخوفا من محصل الضرائب ، ولهذا يتظاهر بالفقر . لم يعرف روسو شيئا من هذا في سويسرة ، وقد تأثر لهذا النظر ، تأثر تأثرا شديدا ؛ فهو يكره الظلم بطبيعته ، ويكره من يظلم الفقراء أو يقسو عليهم ؛ فهذا الفلاح الذي اكتسب خبزه بعرق جبينه لم يستطع أن يظهر بحقيقته ، وعاش معيشة كلها خوف من الظلم ، خوف من الضرائب ، والقسوة في المعاملة ، ومصادرة الأملاك .

خرج روسو من هذا الكوخ حزينا لما يلقاه الفقراء في فرنسا من الظلم ، وما يشعرون به من الجوع والعري . خرج حزينا لما يلقاه سكان الريف من المظالم ؛ فقد منحهم الطبيعة جمالا دونه كل جمال ، ولكن جعلهم محصلو الضرائب فريسة يفتسونها ، ويعتصبون منهم كل ما لديهم .

وقد كانت هذه الحال عادية جدا في القرن الثامن عشر في كل جهة من فرنسا . وخوفا من الضرائب كان الفلاحون يرفضون من سادتهم الذين يعملون في أرضهم أن يأخذوا شيئا من القش أو الأعشاب ليعرشوا به أكوأخهم ، معرضين أنفسهم لبرد الشتاء ، ومطر الشتاء . مواشيهم نحيفة عجفاء ، وحقولهم تترك بدون حرث ، ولا تسمد كما ينبغي . وكثيرا ما كان الفلاحون يتركون أرضهم من غير أن يزرعوا الكرم فيها؛

خوفا من أن يأخذ محصول الفرائب كل ما يجنون من أرباح. وكثيرا ما كان الفلاحون يرمون في النهر ما لديهم من خمر؛ لعجزهم عن دفع المفروض عليها من الضرائب . وإذا لبس أحدهم معطفا ليغطي به الخرق البالية التي يلبسها كان هذا كافيا لإرهاقه بضرائب لا قبل له بها. وكان هناك كثير من الجواسيس يراقبون الناس، ويتجسسون عليهم ، ويكتبون عنهم ما يشاءون من التقارير ، فإذا وُجد أمام الكوخ ريشتان أو ثلاث من ريش الدجاج كان هذا داعيا للاشتباه في غنى الساكن وثروته ، وسببا في زيادة ما يدفعه من الضرائب .

لهذا الظلم الاجتماعي ، وهذه القسوة البالغة ، لم يجد الفقراء وسيلة يحفظون بها أنفسهم من هذا الظلم ، سوى التظاهر بأنهم معدمون ، لا يملكون شروى نقيير . طفق روسو سائرا في طريقه ، وكان في الليالي الباردة ينام أحيانا في كوخ ، وآونة في العراء ، ومرة في نُزل الفقراء ، وليس معه من المال ما يستعين به على الغذاء . وإذا سافر بين أحضان الطبيعة الجميلة ، وصفاء الشمس وجمالها - نسي ما يشعر به من تعب وشقاء ، ونَصَب وعناء، وأخذ يفكر في أشياء يستحيل عليه تنفيذها ، فإذا ما أقبل الليل نام على الأرض هادئا؛ كأنه نائم على فراش وثير من الورد والحرير .

### روسو في مدينة ليون :

وذات ليلة كانت الريح معدومة ، وكان السكون نحيما ، وقد غربت الشمس ، وتركت أشعتها الذهبية في السماء ، وعلى الأشجار كثير من البلبل ، تفرد وتغنى بأصواتها العذبة الجميلة ، فانتش قلب روسو ، وأخذ يتأوه أسفا ، أيتمتع بكل هذا الجمال وحده ؟ وطفق يسير حتى قرب من مدينة ليون ، وأطال السير في تلك الليلة ،

ونسى أنه متعب . ولما شعر بالنعب أخيرا جلس وجمع بعض الحشائش ، ونام فوقها ، ولاغطاء له سوى الأشجار ، فأخذ يستمع إلى البلايل تعنى فوق رأسه ؛ حتى استغرق في النوم ، ونام نوما هادئا عميقا .

وعندما بزغ الصباح فتح عينيه ، ورأى الطبيعة وجمالها ، والشمس وإشراقها ، والنهر وخريره ، والحشائش وخضرتها ، والطبيعة وعظمتها . استيقظ جائعا ، واشتد به الجوع ، وسار فرحا يعنى بروح مسرح لا يفكر في هم ولا غم ، متجها نحو مدينة ليون ، وليس معه سوى قطعتين من النقود ، عزم على أن يفطر بهما إفطارا شهيا . وبينما كان سائرا في الطريق بمدينة ليون إذ قابله رجل<sup>(١)</sup> فسأله : هل يستطيع أن ينسخ قطعة موسيقية ؟ فأجابه روسو : نعم ؛ إن في قدرته أن ينسخ له ما يشاء من الموسيقى ، فأخذه وذهب به إلى بيته ، وأعطاه قطعة موسيقية لينقلها ، وقدم إليه ما يحتاج إليه من طعام وسكنى . وطفق ينسخ أياما نسخا رديئا مملوءا بالخطأ والمحو والترميح ، حتى تسلم رسالة من ( مدام دي وارنتر ) تطلب منه لقاءها ببلدة ( شامبري<sup>(٢)</sup> ) ، فودع مضيغه ، وغادر مدينة ليون ؛ ليذهب إلى تلك السيدة التي طالما أحسنت إليه ، وطالما أحبته وأحبها .

وصل إلى بلدة ( شامبري ) في فصل الربيع سنة ١٧٣٢ م ، فاستقبلته تلك السيدة استقبالا كله شوق وعطف ، واسكنه لم يجد في تلك البلدة ما كان يجده من جمال في مدينة آنسي ، فليس في شامبري نهر ولا حديقة ولا غابات ، ووجد المنزل الذي تسكنه مظانا ضعيف النور ، فاسد الهواء ، حجره قائمة اللون ، في شارع ضيق ،

(١) وكان هذا الرجل يدعى م . روليشون : M. Rolichon

(٢) Chambéry

فوجد روسو المنظر غريباً ، ووجد بالمنزل بستانياً<sup>(١)</sup> عالماً بالأعشاب ، لديه خبرة بالعقائير ، يبلغ من العمر ثلاثين سنة تستخدمه (مدام دي وارنر) في استخراج العقائير من الأعشاب ، وفي خدمتها الخاصة ، وتحميه ويحبها .

### روسو بمصلحة المساحة :

وفي ذلك الحين اشتغل روسو كاتباً بمصلحة المساحة ، فقد بدأت الحكومة تسمح الأرض من جديد ، فوجد روسو عملاً له يستعين به على معيشته ، وبعد أن كان يقضى كثيراً من الوقت في قراءة الكتب التي يستعيرها أخذ يقضى وقته في استماع الموسيقى ، واشترك في إحياء بعض الليالي ، وانقطع عن القراءة والكتابة ، وبدأ يشعر بأن عمله يجب أن يكون موسيقياً ، وترك وظيفته في المساحة حيث كان يعمل خمس ساعات في حجرة قذرة ، هوأؤها فاسد مع كتبة غير مهذبين ، وسُم هذا العمل ، وحن إلى الحرية والعمل الحر ، ورجع إلى وظيفته القديمة ، وهي تعليم الموسيقى ، فوجد قليلاً من التلاميذ يعلمهم . وكان في الواقع يعتمد في معيشته على أمه أو صديقه (مدام دي وارنر) ؛ فقد كانت تعده أكثر من صديق ، وتحميه حباً جماً ، وكانت معروفة بالكرم ، تكرم كل من يزورها . وما أكثر الزائرين لها من التجار والعلماء وغيرهم ، حتى أصبحت فقيرة تحتاج إلى من يعينها ، وقد مناها كثير من الزوار بإعانتها عينا وكذبا . واسوء الحظ توفي خادمها الأمين كلود آني الذي كان يقوم بإعداد العقائير ، ويدير شؤون المنزل ، ويعطها قلبه ، ويخدمها بإخلاص ، فحزنت عليه حزناً شديداً ، وزادت متاعبها المالية ، ولم تجد من يعينها من أصدقائها . وقد عجز روسو مع شدة

(١) هو كلود آني : Claude Anet

حبه ووفائه لها عن معارفها ماليا؛ فهو فقير لا يستطيع أن يعول نفسه ، ولكنه استطاع أن يعزىها ويسليها ، ويدخل السرور إلى قلبها .

بدأ روسو يشعر بأن من الواجب عليه أن يعمل شيئا ليعول نفسه ، وينقذ سيده من الخراب ، وفكر في إنقاذها من الناحية المالية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذها بطريقة عملية ، ولم يتمكن من تحقيق رغبته لضيق يده ، وأخذ يقضى وقته في التمرن على الموسيقى وقراءة القصص ، والروايات ، والكتب الدينية والأدبية ، والمشى في الخلاء بين أحضان الطبيعة . عاش معها أربع سنوات هادئا سعيدا لا يجد عملا يعمل به سوى القراءة ونسخ الموسيقى ، والرياضة في الهواء الطلق . استطاع أن يشاركها في شعوره ، وفي حبه وقلبه ، ولكنه لم يستطع أن يمد لها يد المعونة .

### حياته في شارميتز :

وفي سنة ١٧٣٦م. مرض روسو مرضا خطرا ، وطالت مدة المرض حتى اشتد به الضعف ، وكثرت أسقامه وآلامه . وقد كان بفطرته نحيفا هزيبلا ، ضعيف الجسم . وبعد مدة ليست بالقصيرة شفى من مرضه ، واحتاج إلى رحلة ريفية ، حيث الهواء الطلق ، وجمال الطبيعة . وكانت ( مدام دي وارنيز ) تقيم في بلدة شارميتز<sup>(١)</sup> في منزل جميل الموقع لا يبعد كثيرا عن بلدة شامبري<sup>(٢)</sup> تحيط به الأشجار ، وأمامه حديقة جميلة ، بها كثير من الفواكه والكروم ، وفي الخلف غابة صغيرة ، وبالقرب منه نهر صغير يجري بين جبليين . رحل جان جاك إلى شارميتز ليستجم هناك ، ويستعيد صحته وقوته ، فالتهمج لهذه المناظر الطبيعية الجميلة ، واستقبلته ( مدام دي وارنيز ) بكل

ترحاب، وعاقبها وهو يقول: «هذا بيت السعادة والطهارة. وإذا لمجد السعادة والطهارة هنا فن العبت أن نبحت عنهما في أى مكان آخر» .

مكث روسو في تلك البلدة الجميلة مع أمه المحبوبة مدة الصيف في ذلك المصيف الجميل ، وصاحبها في الشتاء إلى المشتى في ( شَامْبَرِي ) حيث الجو الدافئ ، والهدوء التام .

وقد أحب روسو بلدة ( شَارْمِتَز ) كثيرا ، وأخذ يعود إليها من وقت لآخر ، ويقبل أرضها وأشجارها قائلا : « هنا ابتدأت السعادة القصيرة الحياتي ، وهنا قضيت لحظات سعيدة هادئة جعلت لى الحق فى أن أقول إني من الأحياء ، فإذا استيقظت مع الشمس شعرت بالسعادة ، وإذا سرت أحسست بالسعادة ، وإذا رأيت أمي كنت سعيدا ، وإذا تركتها كنت سعيدا . كنت أجول حول الغابات والحقول والجبال . وأسير بين الأحراج ، وأقرأ وأستريح ، وأشتغل في الحديقة ، وأجمع الفاكهة ، وأساعد في إدارة المنزل ، والسعادة تلازمني في كل مكان » .

### خطته اليومية ودراسته :

وقد وصف روسو خطته اليومية بالتفصيل ، فقال : إنه كان يستيقظ كل يوم قبل طلوع الشمس ، ويسير بين السكروم متجها نحو بلدة شَامْبَرِي ، يصفى إلى الطيور مفردة في الصباح المبكر ، فإذا ما وجد نفسه في الخلاء ، لا يحجبه حجاب ، توجه إلى الله لا بلسانه وشفتيه ، بل توجه إلى الله بكل قلبه . توجه إلى خالق الطبيعة الجميلة التي تحيط به ، والتي يراها بعينيه في كل مكان ، وتوسل إليه بكل مشاعره وحواسه . وما كان روسو يحب أن يدعو الله في حجرة ؛ لأن الحجرة من عمل الإنسان ؛

فهى - فى ظنه - قد تجعل بينه وبين الله حجابا ، وهو يريد أن يتصل بالله حيث لا باب ولا حجاب . وبعد أن ينتهى من تضرعه ودعائه يعود إلى البيت ، فإذا وجد نوافذ الحجر الخاصة بأمه مفتوحة أسرع فى مشيته ، وذهب إلى البيت ، وتناول طعام الإفطار مع ( مدام دى وارينز ) أمه المحبوبة ، وتحدث معها حديث الصباح ، ثم عكف على القراءة والدراسة حتى الظهر ، فكان يقرأ كتب جون<sup>(١)</sup> لوك ، وكتب ديكارت<sup>(٢)</sup> ، وكتب لايبنتز<sup>(٣)</sup> ، وكتب بفيندورف<sup>(٤)</sup> ، والرسائل الفلسفية لقولتير<sup>(٥)</sup> . وفى الساعة الثانية عشرة يشتغل فى الحديقة ، أو يعنى بما كان يريه من الحمام<sup>(٦)</sup> أو النحل حتى يحضر الغداء ، فيتناول طعامه ثم يستريح قليلا ، أو يقرأ أى كتاب للتسلية ، أو يتحدث مع أمه ، أو مع أصدقائه بعد تناول القهوة . فكان وقته فى هذه الفترة منظما ، وحياته سعيدة فى بلدة ( شارمترز ) . وهنا كون نفسه فى دراسة العلوم والآداب ، والفلسفة والسياسة ، والاجتماع والاقتصاد والأخلاق ، والتربية ؛ فكان روسو يقضى وقته بين الدراسة التى يميل إليها ، والكتب التى يعشقها ، والطبيعة التى يفرح بها ، فكان يحب الطبيعة وجمالها ، والشمس وصفاءها ، والأنهار وعذوبتها ، والمياه وخريرها ، والأشجار وظلالها ، والجبال وارتفاعها ، والطيور وتفريدها ، والحقول وخضرتها ، والأزهار ونضرتها ، يميل إلى الجلوس فى الشمس بغير عمل ، أو يقرأ تحت ظلال الأشجار ، أو ينظر إلى الطبيعة الساحرة يصفى إلى خرير المياه . وتفريده الطيور ،

(١) John Locke : ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ م . فيلسوف إنجليزى .

(٢) Descartes ( ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م : فيلسوف فرانسى .

(٣) Leibnitz (٤) Puffendorf

(٥) Voltaire's' Lettres Philosophiques'

(٦) كان الحمام ينف على رأسه وعلى كفيه مطمئناً ، وكان النحل يألفه ويمس على يديه ووجهه

من غير أن يسه بسوء .

وهديل الحمام ، يحب الوحدة والعزلة فيقرأ أو يكتب في الحقل ، حيث لا يراه ولا يشعر به أحد . يحب حياة السهولة والهدوء .

وقد كانت دراسة ( جان جاك ) هنا دراسة منظمة ، ناجحة موقفة ، قرأ كل ما استطاع أن يقرأ للمؤلفين القداماء والمحدثين من الكتاب والشعراء ، والأدباء والعلماء والفلاسفة . قرأ كل ما وصلت إليه يده ، واقتنى ما سمحت به موارده المحدودة من الكتب ، واستعار منها كل ما استطاع أن يستعيره . وكما درس الآداب والفلسفة درس الدين وأساليب الكلام ، مع أنه كان لا يحسن التكلم مع العظاء ، فكان إصفاؤه أكثر من كلامه ، فدرسته في بلدي ( شامبرى وشارمتر ) كانت دراسة ثمرة منتجة ، كان لها كل الأثر في كتابته حينما بدأ يكتب رسائله وكتبه .

وقد أتعب عقله ونفسه بالتفكير في الشؤون العامة التي تتعلق بالمجتمع ، وتتصل بالفقراء وما كانوا يقاسونه ، من ظلم الأشراف والأغنياء ، وتعسفهم وتعنتهم . فكرفي الإخاء والحرية والمساواة بين الأفراد ، وطالب بهذه الحقوق ، ونادى بها . وقد لقي في سبيل مبادئه النفي والسجن والتشريد ، وقد نادى بالعدالة الاجتماعية في وقت انتشر فيه الظلم والاستعباد ، والعسف والاضطهاد ، وقل من كانت لديه الشجاعة والصراحة في معارضة الحاكمين من الأشراف .

وفي سنة ١٧٣٧ أو سنة ١٧٣٨ م . مرض روسو ثانياً مرضاً شديداً ، وتمخيل أن لديه أمراضاً لا علاج لها ، ولا عجب ؛ فقد درس علم وظائف الأعضاء دراسة وافية ، وكان ضعيف البنية ، نحيف الجسم ، معتل الصحة ، يشكو احتباساً في البول ، ويشكو الأرق من حين لآخر . وبعد أن شفى من مرضه فكرفي أن يعود إلى بلدة شامبرى ليقضى الشتاء مع أمه ( مدام دي وارنر ) ، وأخذ يفكر في لقاء أمه المعتاد ، وفي تحيتها

له حيث كانت تقول دائما : « آه، هل عدت أيها الطفل ؟ أكانت رحلتك جميلة ؟ » ولكن وأأسفاه ! استقبلته هذه المرة استقبالا غير عادي ؛ استقبالا فاترا لا تحية فيه ولا مجاملة. ولاغرابة ؛ فالآن يشغلها محب جديد، محب من الشبان المتعطلين، المتظاهرين المسرفين، وهو « فنتز ترید <sup>(١)</sup> » يدعى أنه سيد البيت، وما هو بالسيد، وأنه صاحبه مع أنه عبء عليه .

احتمل روسو هذه المضايقة من هذا المنافس الجديد ، واحتمل تلك الإهانة صابرا، وكان يشغل وقته بين كتبه في حجراته أحيانا، ويخرج للبكاء والتأوه في الغابات أحيانا أخرى . حاول أن يستعيد مركزه القديم في بيت أمه فلم يتمكن ، وحاول أن يبعد هذا المحب الجديد عن أمه ومحبوبته القديمة فلم يستطع ، ثم تهيأت له الفرصة سنة ١٧٤٠ للذهاب إلى مدينة « ليون <sup>(٢)</sup> » فرحل إليها حيث صار معلما لأبناء ( م . دي مابلي <sup>(٣)</sup> ) ، وعاش في ليون يعلم هؤلاء التلاميذ حينما ، ويقضى أوقات فراغه بين البحث والدراسة الفلسفية حينما آخر . وقد وصف روسو نفسه في هذه المرحلة من حياته بأنه عديم الصبر ، كثير الانفعال ، سريع التأثر ، فكان مَلَكًا إذا وجد الأمور تسير كما ينبغي ، وكان شيطانا إذا وجدها كما لا ينبغي . وقد صرح في اعترافاته - وهو خير قادة المرين في المستقبل - بأن هؤلاء التلاميذ أصبحوا فلاسفة ، وأصبح هو طفلا ، ولم ينجح عمليا في طريقته معهم ؛ فقد أساء معاملتهم، ولم يستعمل الحكمة معهم . ولا عجب ؛ فقد كان ضيق الصدر ، تلقى الفسك ، يتذكر حبه القديم لأمه مدام « دي وارنر » ، ويتذكر الأيام الماضية ، والسنوات السعيدة التي قضاهامعها، يتذكر الطبيعة الساحرة، والغابات الجميلة، والكروم الواسعة في « شارمتر » ، فحنَّ إلى العودة ، وعاد إلى محبوبته القديمة ، فاستقبلته استقبالا حسنا على غير ما كان

ينظر ، ولكن وجد أن مناسه ما زال يحتل المكان الأول من قلبها ، وأنه أضاع بإمرانه كل ما كانت تملك ، حتى أصبحت في فقر مدقع ، فتألم روسو لحالها ، وما أصابها من فقر ، فأغلق على نفسه باب حجراته الصغيرة ، وأخذ يؤاف مذكراته الموسيقية بطريقتة الجديدة ، وتخيّل أنه بهذا الشروع يستطيع أن يجد حظه في باريس . فصمم على الرحيل إلى باريس ، تاركا قلبه في « شارمترز » . رحل معه روايته الهزلية ، وطريقتة الموسيقية ، وليس في جيبه سوى خمسة عشر جنيا .

### روسو في باريس :

سافر إلى باريس وعمره تسع وعشرون سنة ، قضى منها تسامع « مدام دي وارنر » بين الحب والعاطفة ، والتمتع بأحضان الطبيعة ، والدراسة الهادئة . سافر إلى باريس سنة ١٧٤١ م ، واستصحب معه كل ما يستطيع من رسائل التوصية من الدوق « دي ريشليو »<sup>(١)</sup> ومن « م . دي مابلي » وغيرها إلى بعض الكتاب والأدباء ، والعطاء والأشراف في باريس ، ونزل بفندق ( سانت كنتين<sup>(٢)</sup> ) وهو فندق متواضع للفقراء قرب ( لاسكسمبورج ) . تقدم برسائل التوصية إلى ذويها ، نحيود تحية طيبة ، ولكن هل يستطيع أن يعيش بهذه التحيات المجردة ؟ وهل يستطيع أن يعيش متنقلا مجيبا هذا إلى دعوة الغداء ، أوذاك إلى دعوة العشاء ؟ وقد أظهر في أثناء تناول الطعام ما جعل المجتمعين حول المائدة يبتسمون ، وجعل الخدم يسخرون منه في أنفسهم . وهل نعجب إذا لم يعرف روسو آداب الأكل في ذلك الوسط المتمدين بباريس ،

وقد عاش حياته الأولى فقيراً في عزلة ، في بيئة ريفية لا يعرف كيف يأكل على نظام لم يألفه من قبل ؟ مكث روسو بهذا التزل ، وحاول أن يجد وسائل العيش بتعاليم الموسيقى . وقد تعرف بكثير من الكتاب ، والأدباء والشعراء ومنهم « فولتير <sup>(١)</sup> » « ودي آل مبير <sup>(٢)</sup> » « ومونتسكيو <sup>(٣)</sup> » « وبافون <sup>(٤)</sup> » « وديدرو <sup>(٥)</sup> » .

وفي الوقت الذي كان يعيش فيه « فولتير » عيش العطاء في قصر من القصور الفخمة أوفندق من الفنادق العظيمة المطلة على نهر السين بين مكتبته الفنية ، يستقبل الضيوف المعجبين به - كان جان جاك روسو يجول مشرداً جائعاً ضالاً في شوارع باريس ، ويقوم بهذا الفندق المتواضع .

وفي أغسطس سنة ١٧٤٢ قدم طريقته في الموسيقى إلى الجمع العلمي <sup>(٦)</sup> بباريس ، فحولت إلى لجنة للفحص عنها ، فرفضت هذه الطريقة وهذا المشروع الموسيقي ، فتألم روسو الألم كله ، واعتقد أن اللجنة ظلمته في الحكم عليه ، ولكنه إذا أخفق في مشروعه ، فقد نجح في التعرف بكثير من كتاب باريس وشعرائها ، وعلمائها وأدائها وفلاسفتها ، وانتفع بأرائهم العلمية والأدبية والفلسفية . والآن وقد رفض مشروعه ، وقيل إنه ليس بمجيد ولا بمفيد ، بدأ يترىض في حدائق لاسكسبم بروج ، ويحفظ كثيراً من الشعر عن ظهر قلب حيناً ، ويلعب الشطرنج أحياناً ، وبدأت معرفته بـ « ديدرو » تتحول إلى صداقة ، فكلاهما فقير ، وكلاهما أديب ، وبينهما تشابه في الذوق الأدبي ، والذوق الموسيقي ، وأخذوا يبحثان معا بعض المشروعات .

بدأ روسو يحلم بالمستقبل ، والمستقبل السعيد ، حتى بعد رفض مشروعه . بدأ يحلم

(١) Voltaire (٢) D' Alembert (٣) Montesquieu (٤) Buffon (٥)

(٦) The Academy of Sciences (٥) Diderot

بالمستقبل السعيد ، وهو يزداد كل يوم فقراً على فقر ، ومسغبة على مسغبة . ولحسن حفظه عطف عليه الأب كاستيل<sup>(١)</sup> ، فقدمه إلى بعض السيدات اللاتي يجدن الموسيقى ، ومنهن ( مدام دي بوزيه قال )<sup>(٢)</sup> فدعته لزيارتها ، فزارها واستقبلته استقبالاً حسناً ، وأعجبت بطريقته الموسيقية ، ودعته لتناول طعام الغداء ، وقد وضع الترتيب على أن يتغدى مع الخدم ، ولكن ابتها قد عاجلت بحكمتها هذا الخطأ دون أن يشعر ، ودعته لأن يأكل مع الأسرة ، وأظهر في أثناء الأكل ما يخالف آداب المائدة ، فهزى منه الخدم والمجتمعون في أنفسهم ، ثم تعرف بدمام دُوبين<sup>(٣)</sup> ، وكان يتغدى عندها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ، ويورها من غير انقطاع . وهناك اجتمع بكثير من العضاء والسفراء والأشراف . وشرعان ماتعلم آداب المائدة ، وآداب الاجتماع .

ثم اختير كاتم سر لسفير فرنسا<sup>(٤)</sup> بالبندقية<sup>(٥)</sup> براتب قدره خمسون جنيتها في السنة ، فحقد عليه زملاؤه ووشوا به ، ففصل من عمله بغير سبب ، وقد كان مؤدياً واجبه خير أداء . وغريب ألا يذكر روسو شيئاً عن البندقية وما فيها من جمال ، مع ولعه بالطبيعة ، وحبه للجمال ، ولكنه ذكر في اعترافاته أنه أعجب ببغى تدعى « زوليتا » وتآلم لها ، وبكى لحالها ؛ فقد كانت مع ذكائها وجمالها تعرض نفسها رخيصة لمن يريد لها . ثم عاد إلى باريس ، ونزل كمعادته بفندق ( سانت كينتين<sup>(٦)</sup> ) وهو غير بعيد من الشربون<sup>(٧)</sup> .

Madame Dupin (٣)    Madame de Bouzival (٢)    Father Castel (١)  
Venice (٥)    M. Montaignu the French ambassador : هو (٤)  
The Sorbonne (٧)    Hotel St Quentin (٦).

## تريزلى فاسور<sup>(١)</sup>، شريكته في حياته المقبلة :

في فندق ( سانت كِنتين ) تعرف روسو بفتاة تبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، تشتغل خادمة في الفندق هي « تريزلى فاسور » وهي فتاة ريفية كثيرة الحياء ، طيبة القلب ، تبدو عليها السذاجة والغباوة ، وهي من أسرة فقيرة في « أورليان » . وكان لهذا التعارف أثر كبير في حياة روسو ، أثر في سعادته حيناً ، وفي شقائه أحياناً . اعتادت هذه الفتاة أن تجلس على المائدة مع سيدتها وغيرها من النازلين بالفندق ، ومنهم السيئ الخلق ، والبذيء الكلام ، والغايظ الطبع ؛ ممن لم يجدوا ثقافة ولا تهذيباً . وكثيراً ما كانوا يسخرون منها ، ويهزءون بها ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها . فتألم روسو لحالها ، وأشفق عليها ، وتقدم إليها لينتشأها من المجتمع الفاسد الذى يحيط بها ، وتحول ألمه لها وعطفه عليها إلى حب ، فأحب تلك الفتاة وأحبه ، واتخذها شريكته له في حياته ، واعترفت له بخطيئتها في ماضيها ، وانتقلا من هذا الفندق ، واستمرت الصلة بينهما على أن تكون شريكته له في حياته تشاركه في السراء والضراء ، والسعادة والشقاء .

استمرت هذه الصلة خمساً وعشرين ، أو ستاً وعشرين سنة ، حتى النهاية الحزينة التى انتهت بها حياة روسو . أعجبت تلك الفتاة بروسو كل الإعجاب ، وأعجب بها ، واعتقد أنها حسنة البصيرة ، وأنها أنقذته من كثير من المتاعب ، وقد كانت سبباً في كثير من شقائه في حياته ، سبباً في كثير من الناقدين له ولها ، وقد ذكر روسو أنها تستحق التقدير ، وتعترف بالجميل .

كانت ( تريز ) باهاء لا تعرف المسكر والخدبة ، والحيل والاحتيال ، ولا تستطيع

أن تفهم روسو ، ولا أن تقدره حق قدره ، ولا أن تشاركه آراءه ، ولا أن تساعد من الناحية العلمية ؛ فقد كانت غير مثقفة ، ضعيفة من الناحية العقلية ، فلم تستطع أن تتعلم القراءة ، ولم تستطع الكتابة إلا بصعوبة ، ولم يمكنها معرفة أشهر العام بالترتيب ، ولم يكن في استطاعتها عد شيء من النقود ، أو معرفة أثمان الأشياء . حاول روسو عبثاً أن يعلمها مدة شهر معرفة الوقت من الساعة الشمسية فلم ينجح في محاولته ، ولم تستطع أن تميز أرقام الساعة بعضها من بعض . كانت تقول الكلمة وتقصدها ، ولا يمكنها أن تدرك أن أربعة وأربعة ثمانية ، وأن شهر أبريل يلي شهر مارس مثلاً . ولم تكن ضعيفة العقل فحسب ، بل كانت كثيرة النزاع والمشاجرة ، محبة للغبية والنميمة ، شرهة في الحصول على المال . ومع هذا كله ، ومع هذه العيوب العقلية والخلقية كان يعجب بها روسو ، وينظر إليها بعين الحب والعطف ، ويلتمس لها المذرة في جهلها ، وقلة إدراكها ، ويشعر بأنها بركة له . وبدلاً من أن يحلل أخلاقها وعقليتها ، ويفكر في تربيتها وأسرتها ، تأثر بالنظرة الأولى لها ، تأثر بمجالها ، ولم يفكر إلا في صوتها ونظراتها ، فأحبها وانتقلها من الوسط الذي يحيط بها ، ولم يفكر في أكثر من الناحية الإنسانية والعاطفية .

عاش روسو مع تريز عيشة موفقة كما يعيش مع أذكي سيدة في العالم . هذا ما صرح به روسو . ولا عجب ؛ ففي الوقت الذي اتصل به لم يكن هناك فرق كبير بينهما في الناحية الاجتماعية أو المالية ؛ فقد نشأ فقيراً ، وعاش طول حياته فقيراً . كان يجد لذة كبيرة في أن يأخذها معه خارج باريس ، ليقضيا بعض الوقت في مقهى أو فندق ؛ حيث يجلسان مما ، أو يسيران للتمتع بالمناظر الطبيعية ، ويتناولان طعاماً يحتوي قطعة من الخبز ، وأخرى من الجبن ، وقليلاً من الكريز ، ومن الشراب .

وقد يطول بهما الجلوس حتى ينتصف الليل . وقد كان روسو يجد في هذه الحياة السعادة التي لا يمكن أن توصف .

أما حَتَمَتَهُ<sup>(١)</sup> فقد كانت خشنة الطبع، كثيرة الشره، سببت له كثيراً من المتاعب، وكلفته ما فوق طاقته من المال، وأحضرت أفراد أسرتها من «أورليان» ليعولهم روسو في باريس، وهم سبعة أو ثمانية، وتعلقوا بروسو، وكانوا عبئاً ثقيلاً عليه، وأظهروا الحب لتريز بعد أن كانوا يسيئون معاملتها، وأخذوا يسرقون من تريز كما يسرقون منه من حيث لا يشعر هو أو تشعر هي . وتكفل روسو بإطعامهم وكسوتهم، وهو الفقير الذي يحتاج إلى من يعينه ويكفله، ويطعمه وينفق عليه . وقد احتمل روسو كثيراً في إرضاء (تريز) شريكته في حياته .

لم يفكر روسو في أكثر من أن يعيش، ولم ينس أنه الغلام المشرّد، والشاب المتعطّل، والصانع الخفق، والمعلم الجائع، فعاش معها راضياً، كأنه يعيش مع سيدة مثقفة مهذبة تتصف بالنبوغ والعبقرية .

لم يشعر روسو بفرق كبير بينه وبينها، ولم يبالي بجهلها بشهور العام، ولا جهلها بجدول الضرب، ولم يكثرث للناحية العقلية، ونسى نفسه وذكاه، وتجاهل عبقريته ونبوغه، ورضى بما أعطاه الله . عاش معها سعيداً قانعاً راضياً اثنتي عشرة سنة، وهي المدة الأولى من حياتهما، وعرض نفسه لنقد أصدقائه، لشرها وشره أسرتها، وسوء منبتها، وكثرة غباوتها . وكان في استطاعة روسو أن يفارقها، ولكن ما ذنبها إذا كانت فقيرة؟ وما ذنبها إذا كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب؟ وما ذنبها إذا كانت بلهاء ضعيفة الإدراك، قليلة التفكير؟ لقد وهب الله لها جمالاً غطى على غباوتها، وصوتاً

(١) أم زوجته .

غطى على بلاحتها ، فاكتفى روسو بهذا الجمال ، اكتفى بحسن مشورتها وبصيرتها على حسب ما كان يعتقد .

عاش روسو في النصف الأول من حياته الزوجية سعيداً ، وشعر مع تلك الخادم بالسعادة التي شعر بها « أديسون »<sup>(١)</sup> مع زوجته « الكونتيس »<sup>(٢)</sup> ، والتي شعر بها فولتير مع زوجته « المرките » ، وإنما نشكر على روسو أن يتزوج تلك المرأة الفقيرة ؛ فقد اعتاد الفقر والجوع ، واستهان بالأغنياء ، واحتقر العلوم والفنون ، وكان ضد النظام الاجتماعي والتربية الاجتماعية . ومن تلك السيدة المثقفة ، الشريفة المهذبة التي كانت ترضى بروسو زوجاً لها ؟ وقد شعر فيما بعد بالخطأ الذي ارتكبه في أن يعيش مع زوج لا تستطيع أن تشاركه في حياته وآرائه ومشروعاته ، وقال في نهاية حياته : إنه لم ير أحداً سعيداً ، وكان قلبه قائماً بتريز ، راضياً عنها ، فقلبها كان قلب ملك في نظره ، وخلق كل منهما للآخر ، وكانت معاملة روسو لها تخالف معاملته لغيرها من الناس ، وقد كان يحبها حباً جماً ، ويثق بها ثقة كبيرة ، في حين أنه كان قليل الثقة بأصدقائه .

وبمضى الزمن تغير حب تريز له ؛ فهو يقول إنه بعد ست عشرة سنة أو سبع عشرة من حياتهما معاً بدأ يشعر بأنها ليست له ، وليس لها ؛ فقد اختلفت عما كانت عليه في النصف الأول من حياتهما معاً . ففي سنة ١٧٦٢ م . أصبحت لا تكترث له ، ولا تفكر فيه . وفي سنة ١٧٦٩ طلبت منه الفراق ، أي قبل وفاته بتسع سنوات ، في الوقت الذي يشعر فيه بالحاجة إلى الراحة والعناية والعطف ، والشريكة المحلصة في الحياة ؛ لكبر سنه وشيخوخته . والحق أنه كان من الخير لتلك المرأة أن تتزوج خادماً أو سائقاً ، وأن يتزوج روسو امرأة ذكية مثقفة تستطيع أن تشاركه في حياته العملية .

---

(١) Addison ( ١٦٧٢ — ١٧١٩ م . ) كاتب إنجليزي جميل الذوق ، دقيق الأسلوب .  
(٢) Countess

في الوقت الذي اتصل فيه روسو بتريز وهو بباريس ، كان يكتب رواية من رواياته الهزلية ، وهي رواية « نَرْسِيس <sup>(١)</sup> ». وبعد أن انتهى من كتابتها قدمها إلى أحد اللاهى ، فرفضها ، فكتب رواية موسيقية أخرى هي رواية ( أَلْمِيز جَالَانْت <sup>(٢)</sup> ) أو « الشيطانان الرقيقات » ، فلم تقبل في (الأوبرا) ، فلسكى يستعين على العيش والحياة عطف عليه ( مدام دُوِين <sup>(٣)</sup> ) ، واتخذته كاتم سر لها بتسعمائة فرنك في العام ، فكان يعمل نهاراً لدى تلك السيدة ، ويذهب ليلاً ليتناول طعام العشاء مع تريز في مسكنه المتواضع. وقد أتاحت له الفرصة ليتصل بكثير من الأغنياء والمثقفين من أصدقاء « مدام دُوِين ». وغريب أن روسو لم يقطع عن ذم الأغنياء والقسوة عليهم في أحكامه ، وقد كان لهم الفضل عليه في كثير من المواقف .

وكان أقرب صديق يتودد إليه ويتصل به في باريس في ذلك الحين هو « دِيدْرُو » ؛ فكانا يتقابلان مرة في كل أسبوع ، ليتناولوا الطعام معاً ، ويتحدثا بكل حرية عن الموسيقى والفن ، والفلسفة والأدب والدين .

في هذا الوقت ولدت تريز طفلاً ، فنصح له أحد أصدقائه بإرساله إلى ملجأ اللقطاء؛ ليخفف عن نفسه متاعب تربيته ، فاتفق روسو مع تريز على تسليم طفلها الأول إلى الملجأ ، فرضيت الأم مكرهة ، وقلبا يحترق . ولم يبد روسو أى اعتراض ، ولم يشعر نحو هذا الطفل بما يشعر به الآباء بالفطرة نحو أبنائهم. وغريب أن يترك الطفل في صندوق الملجأ من غير أن يذكر له اسم ، أو يترك عنوان لأبيه أو أمه ، أو تترك له بطاقة يعرف بها في المستقبل .

وبعد سنتين ولد لها طفل آخر : فأرسل إلى الملجأ كما أرسل الأول ، بالطريقة

نفسها ، وهكذا أرسل خمسة أطفال إلى الملجأ . وفي كل مرة كانت الأم المسكينة تتألم ولا تجد من يشاركها الألم . ولم يكثر ذلك جان جاك ، ولم يجد في هذا العمل غضاضة . وليس من السهل أن تتركه من غير نقد أو اعتراض ، وبسفسطته التمس لنفسه الأعذار ، فماذا تقول عنه ؟ ماذا تقول عن هذه الجرائم التي تأبأها القرائن الإنسانية ، والفترة البشرية ؟ وقد كتب سنة ١٧٥١ م . إلى « مدام دي فرانكل (٤) » رسالة يدافع فيها عن نفسه ، وعن إرساله أبناءه الخمسة إلى الملجأ قائلا :

« إذا كان الشقاء قد اغتصب منه قوة أداء الواجب نحو أبنائه ، فهو يستحق العطف ، ولا يستحق اللوم ، ولا يستحق أن يعيّر الناس ؛ فقد كان مضطراً أن يعمل ليكسب خبزه بعرق جبينه » .

وكيف يستطيع أن يكسب عيشه ، ولم تترك له الاضطرابات المنزلية فرصة للهدوء ، وقد فضل أن يكون أبنائه يتامى ؛ كي لا يعيشوا معيشة البؤس والشقاء مع أبيهم ، فإذا لم يجدوا في الملجأ الوسائل الكافية للراحة والمتعة ؛ فإنهم يجدون على الأقل الوسائل الضرورية للحياة . وإذا لم يربوا ليكونوا عظماء ، فإنهم يربون ليكونوا عمالاً أقوياء الأجسام . وقد رأى روسو في ذلك العصر أن من الخير للإنسان الفقير أن يكون صانعا أو ( ميكانيكيا ) لا أن يكون كاتباً أو أديباً أو مؤلفاً . وقد لام الأغنياء لأنهم حرموا الفقراء - ومنهم روسو - الوسائل التي بها يعولون أبناءهم وبناتهم .

ويتألم روسو لأنه لم يذق اللذة التي يشعر بها الآباء عند معانقتهم لأبنائهم . وإن هذا الدفاع الذي يدافع به روسو عن نفسه يشبه دفاع المحامي الفرنسي الذي طالب المحكمة بالرأفة بموكله وقد اتهم بقتل والديه قائلا : ( رحمة بموكلتي فإنه يتيم . ) فجان جاك أرسل أطفاله إلى الملجأ ثم أخذ فيما بعد يبكي ويصيح : « رأفة بي ، فإني لا أطفال لي » . فمن الذي حرم هذا اليتيم أبويه ؟ ومن الذي حرم روسو هؤلاء الأطفال ؟

فهل أراد روسو أن ينقذ أطفاله من هذا العالم القاسى الذى عرفه ، ومن هذه التجارب القاسية التى جربها ؟ يقول : إنه فكر فى مصيرهم ومستقبلهم ، ولم يكن فى مركز يسمح له بتعليمهم . ولو تركهم لأسماء تربيتهم ، ولو تركهم لأسرتها لكونت منهم أشخاصا غير مهذبين . والحق أنه فكر فى إراحة نفسه منهم ، فكر فى أن يكون حرا لا يفكر فى أحد ، ولا يزعجه أحد ، ثم أخذ يلوم غيره . لقد كان يحب راحة نفسه أكثر من محبته للأطفال ، ولا يريد أن يحتمل تضحية فى سبيل هذا الحب . كان روسو يرتكب الخطيئة ، ثم يكفر عنها بتوبيخ ضميره ، ولا يتعب نفسه فى التمسك بأداء الواجب ، وفعل الصواب .

وقد نقده خصومه نقداً مرّاً؛ لإرسال أبنائه الخمسة إلى الملجأ، وعدم إظهار الحنو الأبوى نحوهم . أما أنصاره فقالوا إنه كان عاقراً ولم يعقب ولدا ، ولو كانوا أبنائه ما ألقى بهم فى الملجأ واحداً بعد آخر . وقيل إن زوجه لم تلد ، ولكن أمها كانت تدعى حملها ؛ لتأخذ من روسو بقدر ما تستطيع من المال لشهرها وفقرها . وقيل إنه كان يشك فى زوجه ، ولذا لم يفكر الأب فيهم حينما كانت تأخذهم جدتهم إلى الملجأ ، ولم يكثر لذلك ، ولم يجد عاراً فى إرسالهم ، ولم يبد عليه أى حزن . وكانت حاله المالية والاجتماعية عند ولادة ابنه الثانى تسمح له بترتيبه ، والتقيام بشئون ، ولكن روسو آثر أن يرسله إلى الملجأ ليكون فلاحاً أو عاملاً يستطيع فى المستقبل أن يكسب عيشه من عرق جبينه ، ولا يقاسى ما قاساه أبوه من قبله من بؤس وشقاء، وتشرذ وعناء . والحق أن فى المسألة غموضاً، وأن البيئة كانت فاسدة ، وأن روسو كان كثير التناقض ؛ لهذا لا نستطيع أن نحكم له أو عليه .

طابت (تريز) فراق روسو سنة ١٧٦٩ كما قلنا . وليس هذا بغيريب فى أخلاقها ؛ فقد سمحت من قبل بأن يؤخذ أبوها إلى الملجأ ليقتضى بقية حياته شقيماً تمسا ، فليس بعجيب أن تطلب من روسو الآن وهو فى سن الشيخوخة أن تفارقه ؛ فهى لم تنس أنه حملها

على إلقاء أبنائها في اللجأ، فآلتهم مكرهة، وقلبها يحترق حزناً على أبنائها. وفي أثناء تأليفه وكتابته لكتبه كثيراً ما مكث أسابيع من غير أن يكلمها كلمة واحدة. ومهما يكن السبب في طلب الفراق، فهو يذكر أنها أرادت أن تفارقه، في وقت كان فيه محطم القوى، قليل الصبر، كبير السن، كثير الأمراض، لا صديق له ولا معين.

وفي رسالة من رسائله لها يقول :

« لقد عشنا معاً ستاً وعشرين سنة، كانت من أسعد السنوات، ولا يمكنني أن أكون سعيداً بدونك. وقد حاولت دائماً أن أجعلك سعيدة هائثة. وإنى أرى مع الأسف أن النجاح في الحياة صعب المرتقى، ولدى من البؤس والشقاء ما لى. إننى أعلم علم اليقين أن ما طبعت عليه من الشرف والاستقامة لم يتغير، وأن المحبة التى كانت مشتركة بيننا لا تزال فى قلبى. إنك الآن يا عزيزتى لا تجدين مسرة فى مرافقتى؛ فأنت طبيعية مع العالم كله إلا معى. إن من الواجب أن نأخذ أصدقاءنا بأخطائهم، وأن أغفر لك هفواتك كما تغفرين لى هفواتى. فإذا كنت سعيدة معى أمكننى أن أكون سعيداً راضياً. ولكننى أرى رأياً لا مرية فيه؛ أرى أنك لست بسعيدة، وهذا ما يحز فى قلبى، ويجعلنى حزيناً. ولو استطعت أن أجعلك أسعد الناس جميعاً ما ترددت فى ذلك؛ لأكون، ستريحاً هادئ البال، ولكن ليس فى استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت لتكونى سعيدة. وفى تلك اللحظة التى أكتب فيها إليك قد تملكنى الحزن والألم، وليس لى رغبة حقيقية أكثر من أن أقضى بقية أيامى متصلاً بك كل الاتصال. إنك تعرفين حظى حق المعرفة، وهو حظ لا يستطيع أحد أن يجرو على وصفه؛ لأنه ليس هناك من يستطيع أن يصدقه. إننى يا عزيزتى ليس فى نفسى سوى رغبة واحدة، هى أعز رغبة، هى أن أضع كل

قلبي في قلبك . فحينما كنت أتكلم معك عما لحقني من المتاعب ، كنت تسهلين هذه المتاعب . وحينما كنت تعطينين على كنت لا أحتاج إلى عطف أي أحد آخر على ، فكنتِ الملجأ الوحيد لي عند الشدة . وكانت ثقتي الخالصة بك لا حد لها . إن روحى لا يمكنها أن تعيش بدونك وبدون عطفك ، ولا تستطيع أن تجد العطف إلا منك ، وإذا أضعت ثقتي بك ، وأجبرتني على أن أعيش وحيداً ، فأنا ميتة لا محالة . وإننى أتمنى أن أموت أقسى ميتة على أن نعيش معاً مع سوء الفهم ، وقلة الثقة ، وعدم الصداقة بيننا . وإنى مستعد أن أقدم لك بنفس راضية أى توضحية تطلبينها ؛ لتكونى سعيدة هائثة . إن لكل منا خطايا نيكى لارتكابها ، ونكفر عنها ، ولكننا لم ترتكب جرائم ، فلنتغاض عن هفواتنا ، ولنتناس تلك الخطايا التى حدثت لنا فى أيامنا الأخيرة . ولنتذكر تلك الأيام الجميلة الحالية ، والأوقات الطاهرة التى قضيناها معاً » .

من هنا نرى أن روسو كان متملقاً بشريكته فى حياته كل التعلق ، مخلصاً لها كل الإخلاص ، قلبه يفيض حباً وعطفاً ، ولكنها لا تقدر هذا الحب والعطف والإخلاص ؛ فقد لطح الحب من البداية بإرسال أبنائها إلى الملجأ ، وقد شعر الأب والأم بخطئهما فيما بعد ؛ ففي الوقت الذى بدأت فيه صلة روسو بتريز تتسكون لم يعرف روسو كيف يكسب عيشه من كتابته أو رواياته الموسيقية .

وغريب أن يُرسل الأولاد الخمسة سنة بعد أخرى إلى صندوق الملجأ ، ولم يُترك مع أحد منهم بطاقة باسم أبويه أو ذويه ، ولا مذكرة بتاريخ ميلاده ، ولا شئ يدل على الأطفال فى المستقبل . ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نستبجح هذه القسوة الإنسانية نحو أطفال لا ذنب لهم وأبواهم من الأحياء . ولا غرابة فقد عرف روسو بحبه لنفسه

وعدم المبالاة والاكثرث . وقد قال في اعترافاته : « إنه فضل أن يربي أطفاله في الملجأ ليكونوا عمالاً وفلاحين ، لا ليكونوا من الأشراف والخاصة الذين يشتغلون بالصيد والقتل » . و بإرساله أبناءه إلى الملجأ أراد أن يجعلهم أبناء للشعب ، وينفذ رأى أفلاطون في جمهوريته ، ويكون قدوة لغيره حتى يشعر الناس بواجباتهم نحو الإنسانية ، ويمطفئوا على هؤلاء اللقطاء الذين يرسلون إلى الملاجئ بغير ذنب جنوه . هذا ما دافع به روسو عن نفسه في اعترافاته ، وهو دفاع لا يخلو من الاعتراض (١) .

وقبل وفاته بعام أو عامين كتب روسو ما يؤيد به إهمال أطفاله ، وتركهم للملجأ قائلاً : إنه خاف على أطفاله قسوة الحياة ، وما فيها من ظلم ، وكان خوفه عليهم من الظالم في هذه الحياة أكثر من خوفه عليهم وهم في الملجأ . لقد خاف أن تسيء أهم تربيته . وكيف تحسن هذه الأم تربيته ، وقد أوتيت من الجهل والغباوة ما أوتيت ؟ خاف أن يتأثر أبنائه بأخلاق أسرة أهم . خاف أن يبت أعداؤه فيهم كراهيتهم لأبيهم .

هذه هي البواعث التي حملت روسو على إهمال تربية أبنائه ، وإرسالهم إلى الملجأ . هذه هي الأسباب التي أدت إلى قسوته على أبنائه ، وقد كان في استطاعته أن يقوم بما لم تقم به الأم ، وأن يحبههم بقوته وعزيمته من أخلاق أسرتها . وإذا غنى بتربيتهم فحال أن يكونوا أعداء له يتآمرون على حياته كما تخيل .

---

(١) استمرت تريبز شريكه له في حياته حتى توفي ، وقد كانت السنوات السبع الأخيرة من حياته كلها شقاء وفقراً . وكانت زوجته ضعيفة أنرت فيها الشبخوخة ، ولم تفارقه حتى النفس الأخير من حياته .

وقد كان أكثر حكمة وصواباً حينما كتب سنة ١٧٧٠ إلى (م. دي سانت جرْمين<sup>(١)</sup>) رسالة هامة يدافع فيها عن نفسه ، في إهماله تربية أبنائه قائلاً : إن الحاجة وشرف شريكته في حياته منعه من القيام بواجبه الأول ، واجبه المقدس نحو تربية أبنائه . بهذا قد اتهم روسو نفسه في تركه أولاده للرجاء ، وكان حينما يرجع إلى عقله وتفكيره يرى أنه فصل ما ينبغي أن يفعل ، وحينما يرجع إلى شعوره وقلبه ، يرى أنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل .

### رسالته إلى صديقه له :

وفي ٢٠ أبريل سنة ١٧٥١م كتب رسالة إلى (مدام دي فرانسكل<sup>(٢)</sup>) يقول: «أنت تعرفين حالي ؛ فقد كنت أحصل بصعوبة شديدة على قوتي اليومي ، فكيف أطعم أسرة ؟ إن البواعث بواعث مالية ، وإن شقائي وسوء حظي حرمانني أداء واجب عزيز عليّ ، كنت أود أن أؤديه ، فأنا أستحق العطف ، ولم أرتكب جريمة أستحق من أجلها التوبيخ والتعير . وإذا اضطرت إلى أن أتخذ التأليف مهنة لي ، فكيف أجد هدوء البال مع كثرة الأطفال في المنزل ؟ وكيف أتمكن من كسب عيشي ؟ كيف أعول نفسي وأطفالي وأمهم ؟ لا يا سيدتي ، إن من الخير لهم أن يكونوا يتامى ، لأن يكونوا أشراراً كأبيهم . ربما تسألين : لماذا لم أتزوج<sup>(٣)</sup> ؟ أسألي يا سيدتي هذا السؤال قوانينكم الظالمة . إن من الواجب ألا يكون لنا أطفال إذا كنا لانستطيع أن نعولهم . عفوا أيتها السيدة ! إن الطبيعة تتطلب منا أن يكون لنا ذرية ما دامت الأرض تخرج طعاماً يكفي الجميع ، ولكن الأغنياء من طبقتك هم الذين

(١) Madame de Francueil (٢) M - de St-Germain

(٣) كانت تريزا شريكة ورفيقة لروسو في حياته ، ولم يتزوجها إلا بعد تمارفهما خمس وعشرين سنة كما سنفصل ذلك فيما بعد .

حرموني الخبز لأطعمي ... إنى أعلم أن اللقطاء لا يربون تربية رفاهية ، وهذا خير لهم حتى يصيروا أقوياء وشجعانا ليس لديهم شيء من الكاليات ، ولكن لديهم كل الضروريات. إن الملاجئ لا تخلق منهم رجالا مهذبين<sup>(١)</sup> ، ولكنها تخلق منهم صناعاتا ماهرين ، وفلاحين صابرين ... إنهم لا يتعلمون الرقص أو ركوب الخيل ، ولكن لديهم أرجلا لا تشعر بالتعب. إننى لن أجعل منهم مؤلفين ولا كتابا، وإن أمرتهم على إمساك القلم ، ولكنى أمرتهم على إمساك المحراث والمبرد والمسحج ، والآلات التى تقودهم إلى أن يحيوا حياة صحية طاهرة كلها عمل ... لقد حرمت نفسى السرور برؤيتهم، ولم أذق مطلقا لذة معاينة الأب لبنيه ... وأسفاه ! فكما أخبرتك من قبل قد أنقذتهم من الشقاء ، وجعلت نفسى شقيا .

وبهذه الفصاحة والصراحة ، والقوة والفسطة ملك روسو عقول القراء . وربما يلاحظ فى هذه الرسالة أن روسو بجديته عن الأغنياء من الأطفال ، وأخذهم الخبز من أفواه الفقراء منهم ، قد ذكر مبادئ جعلت لروسو فيما بعد اسما خالدا .

ويتضح من هذه الرسالة أن الباعث الحقيقى على إرسال الأطفال للملاجئ كان ماديا؛ فققره هو الذى اضطره إلى هذا الخطأ ؛ فهو لم يستطع أن يعول أطفاله الخمسة مع ثمانية من أسرة أهم ، وقد كان محبا لنفسه ، فلم يرد أن يزعجه ، أو يقلق راحته أحد من الأطفال وهو يؤلف . إنه يدعو إلى العمل والاعتماد على النفس ؛ لأن النعمة لا تدوم .

ويجب علينا أن نتذكر أن إرسال الأطفال إلى الملاجئ كان أمرا عاديا فى القرن

الثامن عشر في فرنسا ، فقد كانت روابط الأمانة مفككة منجحة نظريا وعمليا ،  
فقد كانت الزوجة لا تجد عارا في أن ترافق رفيقا غير زوجها . وكان الزوج لا يجد  
منقصة في أن يحب رفيقة أخرى غير زوجته ، وكان كل منهما يعلم أحوال الآخر ،  
فروسو لم يدع إلى إرسال الأولاد إلى الملجأ ، ولم يضع نظرية اجتماعية جديدة في هذه  
الناحية ، بل أنه ضميره ، واعترف بسوء فعلته ، وبخطيئته التي لا تغتفر ، وقد كفر  
عن تلك الخطيئة بتأليف أعظم كتاب في التربية وهو « إميل » أو « إنجيل التربية »  
في القرن الثامن عشر . وقد ذكر فيه واجب الآباء نحو الأبناء ، وواجب الأمهات  
نحو الأبناء .

وإننا مع اعترافنا بخطأ روسو في إرسال أبنائه إلى الملجأ خوفا من الفقر ، وخوفا  
من التبعية نرى أنه لو وثق بالله لعرف أن من يخلق الغم يرسل إليه الطعام .  
« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » . وإن إرسال الأطفال إلى الملجأ  
يشجع الآباء والأمهات على حب النفس ، ووضعهم أحماهم على اكتاف غيرهم ،  
ويؤدي إلى القسوة والفظاظة والغلظة ، ويحرم الأبناء عطف الآباء ، والآباء محبة الأبناء .  
ومن الخطأ أن يلد الإنسان أطفالا ليتركهم إلى ملاجئ الإحسان ، أما اليتامى والفقراء  
فتسليمهم إلى الملجأ حيث يجدون التربية والعناية خير من تركهم مهملين في البيت  
أو الطريق .

وفي سنة ١٧٦١م بذل المرشال (دي لَكْسِمِبُرج<sup>(١)</sup>) مجهوداً يشكر رافة بروسو  
المسكين ، لمعرفة أبنائه في الملجأ ، ولكنه لم يوفق إلى معرفتهم ؛ فلم يكن هناك شيء  
يدل عليهم ، أو علامة يعرفون بها ، أو اسم يشير إليهم ، فعاش أبنائهم وبناته في هذا  
العالم لا يعرفون لهم أبا ولا أما ، ولا يعرف أحدهم الآخر ، ولا يميز الأخ أخاه

وأخته ، ولم يخف روسو على ( المارشال ) رأيه في أنه لا فائدة من البحث ، لأنه ليس في استطاعة اللجأ أن يرد إليه أبناءه وبناته ؛ إذ كتب إليه روسو يقول : « لقد تأخرنا كثيرا ، وكثيرا جدا في البحث ، وإن هذا البحث يسرني من أجل شخصية أخرى هي تريز أكثر من سروري لنفسى » .

وقد ذكر روسو في « اعترافاته »<sup>(١)</sup> أنه تزوج تريز بعد أن تعارفا بخمس وعشرين سنة ، ولا يمكننا أن نقول إنه احتفل بالزواج الاحتفال المعتاد ؛ فكل ما حدث هو أنه جلس على منضدة مع تريز ، ومعهما ضيفان كبيران ؛ أحدهما عمدة البلدة ، والآخر من الأصدقاء ، وصرح أمامهما بأنها زوجته ، وفي ذلك يقول : « لقد تمت هذه الخطبة بكل سهولة وإخلاص ، بحضور رجلين من ذوى الفضل والشرف » . وفي أثناء هذا الاحتفال العادى أخذ الزوجان يبكيان . وبهذه الوسيلة وضع روسو مبدأ للزواج العرفى بحضور اثنين من الشهود . والحق أن النفور كان شديداً بين روسو وتريز في هذا العهد ، وكانت حياتهما غير سعيدة ، لا هدوء فيها ولا سعادة ، وظن روسو أنه بهذا الاحتفال وبذلك الكلمات التي قالها يغير قلب زوجته ، ويزيل ما في نفسها ، ويجعل حياتهما هادئة سعيدة ، كلها ثقة ومحبة ، وشعور متبادل ، كما كانت حياتهما الأولى مما حينما بدأ تعارفا ، واقتنعت بحياتها معه ، واقتنعت بحياته معها . وقد نجح روسو في أنها لازمته ، ولم تنفذ رغبتها في فراقه ، وعاشت معه حتى نهاية حياته ، تلك الحياة الحزنة ؛ فقد عاش فقيرا ، وكانت حياته كلها مملوءة بالآلام والأحزان ، والمذاب والاضطهاد ، ولكنه ترك ثروة علمية تربيبية اجتماعية سياسية اقتصادية خللت اسمه ، وجعلته من عظماء الرجال الذين عاشوا في تلك القرون المظلمة .

## أخلاق روسو وصفاته

إن هذا المربي العظيم كان له أكبر الأثر في عالم التربية والتعليم ، ورسالته في التربية تعد أعظم الرسائل أثراً في عالم التربية، ويعد كتابه إميل « إيجيل التربية ». وكان له أكبر الأثر فيمن أتى بعده من فلاسفة التربية من القرن الثامن عشر حتى عصرنا هذا . وغريب أن يؤلف هذا الكتاب رجل لم ينل حظاً من التربية الخلقية ، والتربية العلمية المنظمة ، رجل لا يستطيع أن يضبط شعوره وهو يعلم تلاميذه ؛ فكان ملكاً ظاهراً إذا سارت الأمور كما ينبغي ، وشيطاناً رجيماً إذا سارت على عكس ما يشاء . فإذا لم يفهم تلميذه تأثر كل التأثر . وإذا أخطأ واحد من اثنين عاقب المخطئ وغير المخطئ ، والمذنب وغير المذنب ، عقاباً شديداً . وليست هذه بالطريقة الحازمة التي ينبغي أن يتبعها مربٍ حكيم في معاملة التلاميذ .

فالتربية الخلقية التي يجب أن ينالها المدرس كل حظها منها لم تكمل لدى روسو؛ فقد كان يسرق الخمر من معلم النقش ، ويشربها سراً في حجرته . وكان يكذب أحياناً بغير مبرر ، ويسرق أشياء تافهة بغير ضرورة ، ويبدو منه أحياناً ما ينافي الأدب ، ولا يلائم آداب الاجتماع . ولا عجب فقد رأى من المذاب ألواناً ، وجرب من الشقاء أنواعاً ، وأحاطت به الحياة القاسية أينما ذهب ، وأينما توجه من طفولته حتى سن الأربعين ، ولازمه الفقر والبؤس حتى ترك هذه الحياة الفانية .

ومع أنه أخفق في عمله الكتابي ، وفي النقش ، وفي الناحية العملية - لم يكن ذلك لغباوته ، ولكن لسوء معاملة أسانذته له ، وقسوة الحياة ، وظلم البيئة التي كانت تحيط به ؛ فروسو كان ذكياً ذكاءً لا حذله ، عيناه برافتان يشع منهما الذكاء .

وقد ظهر ذكاؤه في أول رسالة كتبها عن أثر العلوم والفنون<sup>(١)</sup> في حياة الإنسان ،  
وفي رسالته « عدم المساواة »<sup>(٢)</sup> ، وفي كتابه « العقد الاجتماعي »<sup>(٣)</sup> ، وفي رسالته  
في الاقتصاد السياسي<sup>(٤)</sup> ، وفي كتابه « إميل »<sup>(٥)</sup> .

كان روسو جميل الحيا ، جذاب الابتسامة ، صغير الفم ، معتل الصحة ، مصاباً  
بكثير من الأمراض ، يخفى آلامه ، ويحفظ شكواه لنفسه . تبدو عليه الكتابة  
والحزن حيناً ، والشقاء أحياناً . تاريخه غريب ، وحياته مملوءة بالتعس والشقاء ،  
وشخصيته غريبة ، كثير الحب والعشق والغرام ، ارتكب كثيراً من النقائص ،  
وأخفق في الأربعين سنة الأولى من حياته . كان سريع التأثير ، قوى الخيال ،  
شديد الحياء ، يميل إلى العزلة ، ثم كان يميل بعد الأربعين إلى الفضيحة والطهارة ، ويفكر  
في الكتابة العلمية ، والمعظمة الخلقية ، والسكالم العلمي والخلق والاجتماعي والسياسي .  
كثيراً ماجاع في طفولته وغلومته . وكثيراً ما قاسى الآلام والأحزان والعري في  
شبابه وكولته . وكان وهو في الأربعين لا يأكل في المطبخ مع الخدم ، ولا يرضى  
بمعاملة يشعر فيها بالظلم . وقد رأى بنفسه ظلم الأنوياء للضعفاء ، واضطهاد الأغنياء  
للفقراء في القرن الثامن عشر . فكان خير مدافع عن المظلومين من هؤلاء وهؤلاء .  
ونعتقد أن السعادة يجب أن تشتري ، والمعظمة يجب أن يقدم لها قربان ، ولا بد للسعادة  
والمعظمة من ثمن . ولائمن لهما إلا تحمل المتاعب والآلام . وقد احتمل روسو كثيراً في  
سبيل المعظمة ، وفي سبيل الدفاع عن المظلومين ، وفي سبيل المبادئ التي حملته  
ظروف حياته على أن يدين بها .

---

Discourse on Inequality (٢) Discourses on Arts & Sciences (١)  
An Essay on Political Economy (٤) The Social Contract (٣)  
Emile (٥)

## تناقضه الغريب :

كان روسو يناقض نفسه كثيراً ، يستحسن اليوم ما يستقبحه غداً ، ويستقبح اليوم ما يستحسنه غداً؛ فقد كتب كثيراً ضد المرأة، مع أنه كان محباً لكثيرات من النساء . كتب ضد الأغنياء والأشراف مع أنه كان مديناً لهم في حياته ونجاحه . كتب ضد التمثيل مع أنه كتب كثيراً من الروايات التمثيلية ، كتب ضد العلوم والفنون مع أنه بالعلوم والفنون خلد ٤٥ سنة في حياته وبعد مماته ، كتب كتابه الخالد في التربية وهو « إميل » وقد أهمل تربية أولاده وأرسلهم جميعاً إلى الملجأ . ولا يمكننا أن ننكر أن مشاق الحياة التي أحاطت به ، وقسوة المدرسين ، والبيئة التي اتصل بها ، قادتته إلى هفوات وغلطات لا تنتظر من غلام مثقف مؤدب وجد الحياة التي تحيط به سهلة ، والبيئة التي يتصل بها طاهرة ، والمعلمين الذين يعلمونه لا يعرفون القسوة .

## أثر البيئة العلمية في روسو :

كان للبيئة التي يتصل بها روسو كل الاتصال في باريس أثر كبير في ثقافته العلمية والأدبية والتربوية ؛ فقد اتصل بكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، والاقتصاديين والسياسيين في عصر الملك لويس الخامس عشر؛ مثل: دى ألمبير<sup>(١)</sup> وبقون من العلماء، وماريفوكس<sup>(٢)</sup> ومارمونتيل<sup>(٣)</sup> من الأدباء ، وديدروروفونتير من الفلاسفة . وكانت

Marmontel (٣)

Marivaux (٢)

D' Alembert (١)

حجر الاستقبال في بيوت العظماء والأشراف كدوق عكاظ، يجتمع فيها المتقنون والمتفقات، للنقاش العلمي، والبحث الأدبي، حول أى موضوع من الموضوعات العلمية والأدبية، والاجتماعية والاقتصادية، والفلسفية والسياسية. وكان الرجل لا يُسأل عن أبيه، ولكن كان يُسأل عما لديه من الآراء والأفكار، وما قام به من الأعمال.

وفي كل ليلة من الليالي كانوا يجتمعون لدى شخصية من الشخصيات المعروفة، فليلة لدى مدام دُوبين<sup>(١)</sup>، وأخرى لدى دوق لكسمبُرج<sup>(٢)</sup>، وثالثة عند البارون دى هُلباك<sup>(٣)</sup>، ومرة عند مدام جُفرين<sup>(٤)</sup>، وآونة لدى مدام دى إبناي<sup>(٥)</sup>. فتعرف روسو بكثيرين، وحضر كثيراً من المجتمعات، واشترك في كثير من المحاضرات والناظرات والمناقشات.

وكثيراً ما كان يذهب روسو إلى مقهى (ريجُنس)<sup>(٦)</sup> أو غيره ليجتمع ببعض الأصدقاء من الأدباء والشعراء، والممثلين والممثلات، والتحدث معهم حول بعض الروايات الأدبية والتمثيلية. وقرأ كل كتاب حديث أو قديم وصلت إليه يده، فكان عالماً أديباً موسيقياً، اقتصادياً، سياسياً، عالماً بالنبات، قائداً في التربية والتعليم. عذب في سبيل آرائه، وضحى براحته في حياته في سبيل مبادئه من الحرية والإخاء والمساواة. كتب ما كتب من لآيات البينات في وقت كانت حرية الرأي فيه معدومة. وكان الكاتب يعرض نفسه للنفي والتشريد إذا صرح بما في نفسه ضد الظلم والاضطهاد، والقسوة والاستعباد.

The Duke of Luxembourg (٢) Madame Dupin (١)

Madame Geoffrin (٤) Baron d' Holback (٣)

Café de la Régence (٦) Madame d' Epinay (٥)

## نجاحه الأدبي : رسائله وكتبه (١) رسالته في أثر العلوم والفنون في تهذيب الأخلاق أو إفسادها

في سنة ١٧٤٩ كان صديقه الكاتب القدير (ديدرو<sup>(١)</sup>) سجيناً في (فَنَسِينِس<sup>(٢)</sup>)؛ ففي يوم من أيام الصيف خرج روسو من باريس ، وذهب ليزور صديقه في سجنه . وبينما كان سائراً في طريقه إذ أخذ مجلة من المجلات<sup>(٣)</sup> ليقرأها ، فرأى بها إعلاناً للجمع العلمي في (ديجون)<sup>(٤)</sup> لمسابقة في الموضوع الآتي : ( هل ساعد نجاح العلوم والفنون في إفساد الأخلاق أو تهذيبها<sup>(٥)</sup> ) .

قرأ روسو هذا الإعلان عن المسابقة ، فتخيل عالماً آخر ، وصار رجلاً آخر ، وتجمعت الأفكار في نفسه ، وتكاثرت حتى كاد يغمى عليه من كثرة التفكير . فجلس في الطريق تحت شجرة ليسترخ قليلاً ، ودون ما حضره من الآراء والأفكار في مذكرة ، ثم نهض وسار في طريقه فرحاً متأثراً حتى وصل إلى السجن ، وقابل صديقه (ديدرو) ، وذكر له الخبر .

فسأله (ديدرو) عن الجانب الذي يريد أن يختاره ويكتب فيه . فأجابه روسو أنه سيرهن على أن للفنون والعلوم أثراً في إصلاح الأخلاق وتقويمها . فقال (ديدرو) : « إن هذا طريق الجحوش ، وسيسير فيه الكتاب الماديون ، وستكون فيه الأفكار عادية » . ونصح له بأخذ الجانب الآخر وهو : ( أثر العلوم والفنون والآداب في فساد المجتمع ) .

(١) Diderot (٢) Vincennes

(٣) هي مجلة مركيور فرنسا : Mercure de France (٤) Academy of Dijon

(٥) Has the progress of the Arts & Sciences helped to corrupt or to purify morals

أراه روسو ما كتبه تحت الشجرة ، فشجعه صديقه على التقدم إلى المسابقة ، فكتب روسو في الموضوع ، وبرهن على أن للعلوم والفنون والآداب أكبر الأثر في إفساد الأخلاق ، وشقاء الإنسان ، ونادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وصاح في وجه المدينة والترف ، وقال إن المدنية والترف والحضارة من آثار العلوم والفنون والآداب ، وهي سبب في إفساد الأخلاق .

تفرغ روسو للكتابة في الموضوع لنيل جائزة المجمع العلمي ، وأخذ يفكر فيه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً ، ويقلبه من جميع نواحيه ، فكان إذا أصابه الأرق فكر في الموضوع ، فتتجمع الأفكار في نفسه ثم تختفي وينساها ، ولا يستطيع أن يتذكرها ، فرأى أن ينتفع بمسونة حماته ( مدام لي فاسور<sup>(١)</sup> ) ؛ فكانت إذا أقبلت في الصباح المبكر لإيقاد النار في حجرتها أملى عليها وهو في الفراش ما ألّفه في أثناء ليلته .

كتب روسو رسالته بشجاعة ، وكانت آراؤه مبتكرة حديثة ، فكتب ضد العلوم والفنون والآداب ، وضد المجمع العلمية نفسها ، فنال جائزة المجمع العلمي بديجبون ، مع أنه كتب ضده ، وأخذ يهزأ بأسلوبه الأدبي القوي بالنفي والثروة ، والترف والحضارة والمدنية ، وقال إنها أصل الرذائل وفساد الأخلاق . وكانت كتابته مملوءة بالقوة والحرارة والعاطفة ، خالية من المنطق والترتيب المنطقي . والحق أن هذه أضعف رسالة من رسالته إذا فكرنا في المنطق والترتيب والنظام . ولا عجب ؛ فهو حديث في الكتابة ، والكتابة فن لا يستطيع الإنسان أن يجيده مرة واحدة .

وبمعارضته الرأي المعروف وهو أن للعلوم والفنون والآداب كل الأثر في إصلاح الأخلاق وتهذيبها أظهر قوته وذكائه ، وقدرته على الابتكار والافتنان . وتحتوى

هذه الرسالة على أصول مبادئه وآرائه وعقائده التي أظهرها في كتبه المختلفة فيما بعد .  
ومن تلك الآراء تعرف أخلاق روسو ، وعداؤه للتقاليد العادية ، والترف والمدنية ،  
والمظاهر الاجتماعية ، ونظام الطبقات ، وعداؤه لمن يعتدى على الحرية .

وفي الوقت الذي يعتقد فيه كل إنسان أن للعلوم والآداب والفنون أثرا كبيرا في  
تهذيب الأخلاق ، نادى روسو بأن لها كل الأثر في إنساد الأخلاق ، وانتشار  
الزنازل ، فناقض نفسه بنفسه ؛ فهو بالعلم والآداب والفن ارتقى ، وارتفع من الخسيف ،  
ووصل إلى القمة ، ولم يرجع إلى الوراء .

يرى روسو أن الطهارة والفضيلة ، والأمانة والإخلاص ، لا وجود لها إلا في  
العصر الذهبي ؛ عصر الرجوع إلى الطبيعة ، ذلك العصر الذي كانت فيه العلوم والفنون  
مجهولة ، حينما كان الإنسان يحيا حياة أولية بدائية ، ويعيش معيشة ساذجة . وقد زعم روسو  
أن الإنسان المتمدن لا يظهر كما هو ، والمجتمع المتمدن لا يظهر بحقيقته . والإنسان  
المتحضر سيئ الظن بغيره ، قليل الثقة ، كثير الخوف والحقد ، كثير البغض والخيانة ،  
ويخفي هذه الصفات كلها في نفسه ، ويتظاهر بالأدب والثقافة والعلم ، وما هو بأديب  
ولا منصف ولا عالم . وقد فسد خلقيا وأديبا . وقد ادعى أن بالعلوم والفنون تأخرت  
مصر واليونان والرومان بمد تقدمها ، وقل الخير فيها بعد أن كان كثيرا ، وانتشر  
الشر بعد أن كان قليلا ، وبدت بها علامات الضعف والخلاف ، وقد كانت مثلا  
للأخلاق والفضيلة قبل العلوم والآداب والفنون .

فصير القوية الجميلة بسائها وأرضها ونيلها ، الفنية بثروتها وزراعتها وصناعاتها ، التي  
حكمت العالم بشجاعته وبسالته - ضعفت وانحلت قواها حينما انعمت في الترف

وأصاليب الحضارة والمدنية التي أنتجتها العلوم والآداب والفنون ، فحكمتها اليونان والرومان والعرب والترك .

وقد حل باليونان والرومان ما حل بمصر حينما انعمست كلتناها في أصاليب الترف والملاذ، والتأنق والتجمل، والتخث والمدنية وغيرها من آثار العلوم والفنون والآداب. فروسو كتب ضد العلوم والفنون والآداب ؛ لأنها تؤدي إلى الترف، والترف يؤدي إلى الرذيلة ، وفساد النفوس ، وضعف الأخلاق ، فتضيع الفضيلة ، ويستعبد القوى الضعيف، وتضعف الأمم بعد قوتها، وتجن بعد شجاعتها. وقال إن المدنية كانت سببا في التعطل والكسل ، وفساد الذوق والتربية والآداب . ففي المدرسة يتعلم الأطفال كل شيء إلا أداء الواجب . وفي الأدب يكتب الأدباء لكسب العيش ، ولا يكتبون شيئا له أثر أو منفعة . وفي المجتمع يتظاهر الناس بالكمال والآداب وهم أبعد الناس عن الكمال والآداب ، والإحسان والطهارة ، والوفاء والإخلاص .

وفي الفلسفة يعلن الفلاسفة عن فلسفتهم وآرائهم ، كما يعلن التاجر الذي كسدت تجارته عن بضاعته الكاسدة في السوق . ولو أنصف هؤلاء جميعا لدعوا الله أن يتقدم من شر هذا النوع من الفن والآداب والعلم ، ويمنحهم الجهل والطهارة، والفقر والفضيلة ؛ فهي وحدها تستطيع أن تجعلهم سعداء متمتعين بالسعادة .

هذا ما رآه روسو . وبأسلوبه العذب وروحه القوي، وفصاحته النادرة، وسفسطته الجميلة ، هاجم المجتمع الفرنسي، والمدنية الفرنسية ، والبيئة الفاسدة ، والترف الضار ، وكتب ضد العلوم والفنون والآداب حتى تخيل القارئ أنه يجب عليه أن يحرق كتبه ، وينقطع عن تربية أولاده وتعليمهم ، ويعود إلى عصر الجهالة ، والوحشية . والحق أن روسو لم يدع إلى إحراق الكتب ، ولم يناد بالجهل والرجوع إلى الوراء،

ولكنه شعر بما يشعر به الفقراء، ورأى أن الترف منبع كل شقاء، والمدنية أصل كل بلاء. وبهذه الرسالة نال روسو جائزة المجمع العلمي بديجون، ووصل إلى أوج العظمة، بعد أن كان موسيقيا مخفقا لا يعرفه أحد. وقد أحدثت تلك الرسالة ثورة كبيرة، وجدالاً عنيفاً في فرنسا، وأعجب بها كثير من العلماء والأدباء مثل (ديدرو) الفرنسي، وجيرم الألمانى، وتخطاها القراء، من أغنياء وفقراء، وأصبح روسو معروفاً لكل إنسان، وعارضها (جوتيه)، وملك سردينية، وصديقه (بورد)، و(فولتير). وقال (فولتير): «إنه يدعو إلى الرجوع إلى الجهالة والمصور المتوحشة. ولو اتبع الناس نصيحته لصاروا حيوانات تسير على أربع».

أحس روسو بالنقد اللاذع الموجه إليه، والمعارضة القوية التي قام بها أعداؤه والحاقدون عليه، وأخذ يفكر في الرد عليهم، وتخلص بذكائه ومهارته، وصرح بأنه لم يقصد إحراق دُور الكتب، أو إغلاق المدارس والجامعات والمجامع العلمية والأدبية، ولم يرد الرجوع بالعالم إلى الوراء، ولكنه أراد الرجوع إلى الفضيلة، والبعد عن الترف والرذيلة، والمساواة بين الأغنياء والفقراء. وبهذا التصريح نادى بالانتفاع بالكتب والمكتبات، والمدارس والجامعات، والتمسك بالفضيلة، والمساواة. بهذه الرسالة عُدّ روسو من كبار الكتاب والأدباء، وبعهاجته للبيئة الفاسدة، والمدنية الكاذبة، والترف المفسد المجتمع ارتفع روسو إلى القمة العالية فوق السحب، وتحققت نبوءة (ديدرو)، ونجح نجاحاً باهراً، ووفق توفيقاً عظيماً. وقد أهان روسو بكتابه الأغنياء والفتيات، والأثرياء والثريات، وكانت كتابته ضد نظام الطبقات، وكتب بكل شجاعة، وذكر آراء لم يجزؤ أحد أن يذكرها. وقد ساعده أسلوبه

القوى ، وروحه الكبير على الانتصار على معارضيهِ وحاسديه ، والدفاع عن الفقراء ، ومهاجمة المترفين من الأغنياء ، وبرهن على أن التفرقة بين الأغنياء والفقراء مصدر كل شقاء في هذا العالم ، وأنه لا سعادة في هذه الحياة إلا بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان :

واقعد ذكر روسو أن عدم المساواة هي السبب في كل شر ، وأن العلم مقصور على الأثرياء في ذلك العصر ، وفي الوقت الذي يضيع فيه الأغنياء ثروتهم في أنواع المسرات والملاذات لا يجد الفقير ما يكتفيه من الطعام ، وفي الوقت الذي لا يجد فيه الصانع أو العامل الضروريات يجد الثرى كل الكماليات ، وفي الوقت الذي يجد فيه الغني الخمر على مائدته لا يجد الفقير ماء صحيا يشربه . وإن فضلات الطعام على موائد الأغنياء تسكفي كثيرين من الفقراء .

هذه خلاصة لما ذكره روسو في رسالته التي هاجم بها الأغنياء ، ونادى فيها بالرجوع إلى الطبيعة ، وهجر الملابس المزخرفة ، وعدم التكلف في الأزياء .

وقد كتب « بَافُون<sup>(١)</sup> » و « مونتسكيو<sup>(٢)</sup> » من قبل ضد الترف ، ونادى كل منهما بالرجوع إلى الطبيعة ، ولكن لم يستطع أحد من الكتاب أن يكتب بأسلوب كأسلوب روسو ، أو قلم كقلمه ؛ فهو قد وضع قلبه في كتابته ، وفي وصفه شعور الشعب ، فأثر في القراء ، وملك قلوب الفقراء والأغنياء على السواء .

---

(١) Buffon : ( ١٧٠٧ — ١٧٨٨ ) : عالم فرنسي من علماء التاريخ الطبيعي .

(٢) Montesquieu : كاتب فرنسي كبير ، من كبار رجال السياسة والقانون ، ولد في ١٨ من

يناير سنة ١٦٨٠ ، وتوفي في ١٠ من فبراير سنة ١٧٥٥ .

على أننا نقول إن العلم الذي لا يؤدي إلى الفضيلة لا يستحق أن يسمى علماً ، وبالعلوم والفنون والآداب قد وصلت الأمم المتحضرة اليوم إلى الأخلاق الفاضلة ، والكمال الممكن ، والسعادة التامة ، والإنسانية النادرة ، وهذا كله لا يتنافى الرجوع إلى الطبيعة ، والانتفاع بجمالها ، وعدم التكلف في الحياة ، وترك الترف الذي يؤدي إلى شقاء الفرد والمجتمع .

وصل روسو بهذه الرسالة إلى العظمة التي ينشدها ، وصل إلى القمة بين الكتاب والأدباء ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، وصار موضع الإعجاب من الجميع إلا الأعداء ، ولكن مما يؤسف له أنه لم يكمل سروره ؛ فقد ذهب في عيد الميلاد إلى رحلة من الرحلات ، فسرق صهره ملابسه ، واستغلت « تريز » وأمها اسمه على غير علم منه في طلب بعض الهدايا من المعجبين به ، وما أكثرهم !! فكانت أسيرة شريكته في حياته سبباً في شقائه .

## (٢) رسالته في التفاوت أو عدم المساواة<sup>(١)</sup>

في سنة ١٧٥٣ م أعلن المجمع العلمي بديجون عن مسابقة أخرى ، وعين لها جائزة خاصة ، كان موضوعها : « ما الأصول في عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضى القانون الطبيعي بعدم المساواة ؟ » وقد شجعه نجاحه في رسالته عن العلوم والفنون وأثرها في الأخلاق على أن يحاول الكتابة في هذا الموضوع ، ويتقدم إلى المسابقة ، فأخذ شريكته ( تريز ) معه ، وذهبا في رحلة إلى « سأن جرمان » ، ومعهما سيدتان صديقتان ، فمكثوا في تلك البلدة أسبوعاً ، وكان الجو جميلاً ، والحياة صافية ، فكان روسو

(١) His Discourse on Inequality : رسالته في التفاوت .

يترك « تريز » معهما ، ويذهب وحده إلى الغابات ليفكر في الموضوع ، ويكتب ما عن له من الأفكار ، وهنا سنحت له الفرصة ليفكر في الإنسان الأول ، وفي العصور الأولى ، ويوازن بين ابن الطبيعة وابن المدنية والحضارة ، ولكن مما يؤسف له أنه لم ينل الجائزة ، كما كان ينتظر ، ولم يفت ذلك في عضده ، ونشر الرسالة سنة ١٧٥٤ ، فذاع صيته بين الكتاب والأدباء في فرنسا وغيرها .

وعرف روسو الآن بأنه معلم للموسيقا ، ومؤلف وكاتب قدير ، قوى الأسلوب شجاع فيما يكتب ، صريح فيما يقول . قرأ المثقفون من الفرنسيين تلك الكتابة المؤثرة ، فأعجبوا بها إعجاب الإنجليز بكتابة « كارليل <sup>(١)</sup> » الفيلسوف الإنجليزي في القرن التاسع عشر .

وإن القارئ لروسو يشعر بعدائه للأغنياء والعظماء ، مع أنه كان يعيش معهم ، ويتصل بهم . وفي هذه الرسالة حكم روسو على فساد المجتمع الإنساني ، وعلل سبب الفساد بعدم المساواة بين أفراد المجتمع في الفرص والحظوظ ، والمعاملات والحقوق ، وقد كتب ضد المدنية ، وأخذ يشيد بالإنسان الأول ، ذلك الإنسان الطبيعي التقى الطاهر ، وأعجب به الإعجاب كله ، وتصوره نائماً تحت شجرة ، يحصل على طعامه بمحاكاة الحيوان ، ويعيش كما يعيش المتوحشون ، ويعود به إلى العصر الحجري أو العصر الذهبي في نظر روسو ، حينما كان الإنسان الأول أقوى صحة ، وأشد حرية ، وأكثر طهارة من الإنسان المتمددين . تخيله وهو مقتنع بكوخ من اللبن ، وبملابس من جلد الحيوان ، وزينة من ريش الطيور والصدف ، يعتمد على نفسه في معيشته ،

---

(١) Carlyle : ( ١٧٩٥ - ١٨٨١ م . ) كاتب إنجليزي كبير ، ومن مؤلفاته ( الأبطال وإجلالهم ) و ( الثورة الفرنسية )

ويقوم بما يستطيع القيام به من عمل . فروسو يريد الرجوع إلى الطبيعة ، وهو ضد المَلِكِيَّةَ ، ويمدها نوعا من الاغتصاب والسرقة ، وضد العبودية والترف والمدنية . وقد أثبت أن المدنية هي السبب في التفاوت وعدم المساواة بين الإنسان والإنسان ، وهي منبع الشقاء في كل أمة من الأمم ، وقد كتب ضد الفكر والتفكير ، واعتقد اعتقادا غريبا أن الرجل الذي يفكر هو حيوان فاسد المزاج . ولا عجب ؛ فهو يريد أن يقول : إن التفكير الإنساني أدى إلى الحضارة والمدنية ، وأدى إلى الترف ، وهذه كلها أصل كل شقاء ، وهي السبب في عدم المساواة . وقد بين أن الرجوع بالإنسان إلى حاله الطبيعية يؤدي إلى المساواة ، وقد تكلم عن الحكومة وأنواعها . والحكومة في نظرنا يجب أن تحكم لصالح الشعب ، وتفكر في الشعب ، وتعمل للشعب . وفي نهاية رسالته يقول : « إن مما يضاد قانون الطبيعة أن يأمر طفل شيخا ، وأن يقود رجل معتوه حكما من الحكماء ، وأن يتختم قليل من الناس في حين أن الكثيرين لا يجدون الضروريات » . وقد ذكر الثائرون في باريس هذه الكلمات الأخيرة بعد نشر هذه الرسالة بأربعين سنة في مجتمعاتهم ومنشوراتهم ، وخطبهم التي أثارت كراهية الجمهور لمن يظلمه . وفي سنة ١٧٩٢م أعاد «مارات<sup>(١)</sup>» الكاتب الفرنسي هذه الكلمات ، وخاطب بها المجتمع الفرنسي الجائع في قوله : « إن الأشراف لاحق لهم في أن يعيشوا مترفين وأنتم في حاجة إلى الخبز . اجمعوا أنفسكم جماعات ، واتحدوا ، وقسموا الأراضي وثروة الأثقياء الذين دفنوا تحت الأرض ما لديهم من الذهب ؛ ليجهلواكم جياعا خاضعين مستعبدين » .

(١) Marat : من أكبر قادة الثورة الفرنسية ( ١٧٤٣ - ١٧٩٣ م ) ، وقد نقل رفاته

إلى ( البانيون ) مدفن العظام بباريس باحتفال عظيم .

## (٣) رسالته في الاقتصاد السياسي<sup>(١)</sup>

في سنة ١٧٥٣ كتب روسو رسالة في الاقتصاد السياسي ، ضمنها آراءه السياسية ، ولم يذكر فيها كثيرا من الشؤون الاقتصادية ، بل ذكر فيها مبادئه السياسية والاجتماعية ، وهي تدل على شعوره القوي نحو ( الديمقراطية ) . ومن هذه المبادئ :

- ١ - يجب أن يعبر القانون عن إرادة الشعب .
- ٢ - يجب أن تقوم الحكومة بتعليم جميع الأطفال تعليما حقا تتحقق فيه المساواة ، حتى يعتاد كل طفل المبادئ ( الديمقراطية ) ، ويتكون نشء كامل ، ولا يكون هناك نظام طبقات أو فرق كبير ، بين الغني والفقير .
- ٣ - يجب أن تفرض الضرائب على الأغنياء لا الفقراء ، ولا تفرض على الضروريات بل على الكماليات في الحياة . فلا توضع ضرائب على القمح والملح ، بل توضع على المرايا والأزياء الرسمية والقصور . ولا تكلف الطبقات العاملة ضرائب ، بل يكلف الدجالون والشعوذون والمغنون والمثلون تلك الضرائب .

هذه بعض المبادئ الاقتصادية التي ذكرها روسو في رسالته في القرن الثامن عشر ، وبتنفيذها تقل الفروق بين الطبقات في الشعب الواحد .

وقد انتقد روسو أن تكون مصالح المجتمع متصورة على الأقوياء والأغنياء ، وأن تجعل الوظائف الكبيرة لهم وحدهم ، وتقتصر الاستثناءات والترقيات عليهم

دون غيرهم . ومن الأمثلة التي أخذ يندد بها أن الغنى إذا سرق أو ارتكب القبيح كان آمنا من العقاب . وإذا ضرب أحدا ، أو اعتدى على أحد ، أو قتل بريئا لا يجرؤ أحد أن يضربه أو يعتدى عليه أو يقتله كما فعل ، ونسيت خطاياها وجرأته بمد بضعة شهر . وإذا ضاع له شيء أو سرقه سارق قام الشرط ، وأخذوا يبحثون عن السارق . وويل للفقير المسكين الذي يشتمون فيه . وإذا مر الغنى بمكان خطر وجد حراسا يحرسونه من كل جانب . وإذا أحدث أحد صوتا أو وضوءا بالقرب من منزله كانت إشارته كافية لإسكات الجميع . وإذا انكسر محور العجلة التي يركبها جرى كل إنسان لمساعدته . وإذا مر سائق فقير في طريق الرجل الغنى كان الخدم مستعدين لضرب السائق . وقد تدوس عجلة الغنى أحد العمال السائرين على أقدامهم إلى أعالمهم ، فلا يجرؤ أحد على وقف هذا الغنى المعتدى عند حده . وإذا احتاج الشعب إلى جنود أخذ جنوده من الفقراء . وما أسوأ حظ الرجل الفقير إذا كان ذا شعور قوى ولديه بنت ذات جمال ، وكان جاره من الأغنياء أو الأقوياء . وكلما اشتدت حاجة الفقير إلى العطف رفض المجتمع حاجته وقسا عليه . فالفقير كان يحتمل كثيرا ، ويقاسى كثيرا ، ولم يكن له من الحقوق مثل ما للغنى ، وكان عليه من الواجبات أكثر مما على الغنى .

هذه خلاصة لنقد روسو للحالة الاجتماعية في فرنسا ، ومعاملة الفقراء في القرن الثامن عشر . وقد شاهد هذه المناظر بنفسه في جولاته الكثيرة ، ورحلاته المختلفة من بلدة إلى بلدة ، ومن قرية إلى أخرى . وقد قاسى روسو نفسه ما قاساه الفقراء في هذا العصر ، وجرب ما جربوا ، ورأى كيف يعيشون في أكواخ غير صحية لانوافذها ، وقد لحظ الفلاحين الأشقياء وهم جياع يأكلون الخبز القفار ، ويشربون مياها غير صحية ، عراة يلبسون خرقا بالية ، لا تستر أجسامهم الضعيفة ، أنقلت كواهلهم

بضريبة الملح والقمح وضريبة الخمر ، ولا ينفون إلا من الضرائب التي يعفى منها الأغنياء والنبلاء ، ويؤخذ منهم نصف أرباحهم . وكان الفقراء يقضون ثلاثة أشهر من العام في أعمال إجبارية ، ليصالحوا الطرق ، ويكملوها معبدة لعجلات الأغنياء ، وحبوبهم تأكلها زرافات من الحمام الذي يقتنيه الأغنياء ، وتداس حقولهم ومحصولاتهم عندما يقوم الأغنياء بالصيد والقنص ، ويؤخذ أبنائهم من الحقول ؛ ليرسلوا إلى الجيش ، وليعيشوا مع المشردين والمنفيين ، فتزداد الطبقة المجرمة .

وفي الوقت الذي كتب فيه روسو هذه الرسالة في الاقتصاد السياسي كان القحط عاما في جميع أنحاء فرنسا ، وكان الفقراء يأكلون الحشائش كما تأكل الأغنام ، ويموتون كما يموت الذباب ، في حين كان الأغنياء في رغد من العيش ، يتمتعون بكل ما لذ وطاب من متع الحياة ، يسمعون كثيرا عما لحق الفقراء من الجوع والعري ، والبؤس والشقاء في المقاطعات المختلفة ، وكأنهم لم يسمعوا شيئا ، ولم يشعروا بشيء . لم يتألم لهم أحد ، ولم يفكر فيهم إنسان ، فضج الفقراء ، وصاحوا صيحات الألم والاحتجاج ، ولم يبالوا بنتيجة ، ولم يخافوا عاقبة ، ولم يفكروا إلا فيما لحقهم من المظالم . وحينما يصل الشعب إلى هذه الدرجة التي لا يكثرث فيها شيء ، ولم يبال بما يحدث استحق هذا الشعب كل شيء . فالضجيج يؤدي إلى الاضطراب ، والاضطراب يؤدي إلى العصيان ، والعصيان يؤدي إلى الثورة .

ففي الوقت الذي كان يشعر فيه الفقراء بالجوع والعري والاضطراب والإرهاق والظلم كان الأغنياء يحابون كل المحاباة ، وتدفع لهم معاشات لا يستحقونها ، وتخصص لهم رواتب لا يؤديون بدلها خدمة لوطنهم ، ويعينون في أكبر المراكز . ولقد قيل :

إن حلاقا خصص له معاش قدره ألف وسبعمائة فرنك في السنة لقيامه بخدمة طفلة من طبقة الأشراف توفيت وعمرها ثلاث سنوات قبل أن يكون لها شعر يمكن أن يخلق .

لهذا كله كان روسو ضد الأغنياء الحبين لأنفسهم ، وكان قلبه ضد طبقة الأشراف . وذات يوم قال ( لمدام دي إيناي <sup>(١)</sup> ) : « إن الأمل في حياة أخرى يجعلني أحتمل الفظائع التي يرتكبها الأشراف ، فهم يسرون بشقاء آلاف الآلاف من أناس كان ينبغي أن يجهلهم سعداء . إنني لا أحمل حقدا لأحد ، ولا أفسر في إيذاء أحد ، ولكن حينما أرى الظلم في هذا العالم أسلى نفسي بالتفكير في أن هناك جهنم لهؤلاء الظالمين » .

فروسو كان ضد الملكية الخاصة ؛ لاعتقاده أنها السبب في عدم المساواة ، والسبب فيما يرتكبه الغني من رذائل ، وما يلحق الفقير من شقاء ، وما يلحق الإنسانية من ذل وعبودية ، وبهذه الرسالة وضع أسس مبدأ تكافؤ الفرص ، ونادى بالعدالة الاجتماعية ، وصاح ضد الظلم والعبودية والقوانين الظالمة .

وبعد أن كتب هذه الرسالة سافر إلى جنيف ، موطنه الأصلي ، ومسقط رأسه سنة ١٧٥٤ م ، ومع « تريز » شريكته في حياته ، وقد ر في طريقه بصديقته القديمة ، وأمه المحبوبة « مدام دي وارنر » ، بعد أن غاب عنها ثلاث عشرة سنة ، فرآها سيئة الحال ، منهوكة القوى ، يبدو عليها الفقر والبؤس ، فتألم لها الألم كله ، وساعدها بما في وسعه من الناحية المالية . فروسو ترك جنيف هائما على وجهه ، وعمره ست عشرة سنة ، وعاد إليها كاتباً قديراً ، وأديباً عالمياً ، وعمره اثنتان وأربعون سنة ، فاستقبله أهل

جنيف استقبالا حارا ، استقبال الوطن المقدر للإن الفاتر المنتصر ، ومكث فيها أربعة أشهر ، ثم عاد إلى باريس ليطلع رسالته في « أصول عدم المساواة بين النوع الإنساني » . ولكي يتجنب الرقابة الشديدة على المطبوعات إذ ذاك في فرنسا طبع هذه الرسالة في هولندا ، وأهداها إلى جمهورية جنيف . وقد صار روسو في ذلك الحين يكره باريس ، يكره أن يكون قريبا من « فولتير » عدوه اللدود ، وصديقه القديم . يكره باريس لكثرة أعدائه والحاسدين له فيها ، والمتآمرين عليه . وربما كان هذا هو السبب في تفكيره أن يعيش في الريف ، بعيدا عن المدينة ، وما فيها من مظاهر اجتماعية ، ثم أقام مع « مدام دي إيناي » في بلدة « شِفْرِيت » .

و ذات يوم سار وهو عائد إلى جنيف مع مدام « دي إيناي » « وتريز » حتى وصلا جميعا إلى غابة « مونتْمورِنسي »<sup>(١)</sup> فأروا في الغابة منزلا منزلا في موقع جميل ، يحيط به كثير من الأشجار ، ولكنه يحتاج إلى إصلاح ، فصاح روسو : « ما أجل السكنى هنا يا سيدتي ! هذا خير ملجأ لي » . ولم يقل أكثر من هذا . فعند عودته من جنيف إلى بلدة « شِفْرِيت » عاد إلى غابة « مونتْمورِنسي » ومر بالمنزل الذي رآه من قبل ، فمجب كل العجب حينما رأى أن ذلك الكوخ الخرب صار بيتا جميلا ، مؤثنا بأثاث يدل على الذوق الجميل ، وقابل « مدام دي إيناي » به ، فقالت له : « هذا ملجؤك الذي اخترته ، وإن الصداقة هي التي تقدمه هدية لك » . فتأثر روسو كل التأثر ، لهذا العطف الشديد عليه ، وهذه الرواة النادرة ، وتساقطت دموعه على يدها ، وقبل الهدية بعد تردد ، لأنه يحب الحياة في الريف الهادئ ؛ فقد سُم المدين ، ومل حجر الاستقبال ، وحياة المظاهر . سُم الاحتفالات في باريس ، والمجتمعات

الصاحبة . ولا غرابة ؛ فهو الآن يود أن يعيش في هدوء وسكون ، يود أن يعيش في الريف حيث يجد الهدوء الذي يمشقه ، والطبيعة التي يولع بها ؛ ليكتب هنا ما يشاء ، ويؤدى رسالته العلمية والأدبية خير أداء .

## (٤) كتاب العقد الاجتماعي<sup>(١)</sup>

كان الكتاب والأدباء والمفكرون في فرنسا لا يكتبون إلا بحذر قبل روسو ، خوفا على أنفسهم من المسف والاضطهاد ، والظلم والاستبداد ، فكانت حرية الكتابة مفقودة ، وحرية الرأي تكاد تكون معدومة ؛ لشدة الرقابة على ما يكتب وما يؤلف ، وكانت الآراء التي تعد عادية وعادية جدا في إنجلترا في القرن الثامن عشر تعد ثورية في فرنسا ، وكانت الحكومة مختصة بالبحث في حقوق الإنسان ، أما المفكرون فلم يكن هذا البحث من اختصاصهم ، وكان المصلحون من الأحرار في آرائهم وأفكارهم يضطهدون كل الاضطهاد ، ويعرضون أنفسهم للسجن والتعذيب ، والنفي والتشريد ، وخاصة إذا تعرضوا لآراء الكنيسة . ولم يجرؤ أحد على النقد الحر قبل الثورة الفرنسية إلا (روسو و فولتير) ؛ فإنهما كانا من عشاق الحرية ، والصراحة في الرأي والقول ، فكتب روسو يدافع عن الفقراء ، ويصف شعور الشعب ، وينتصر للعامة ، تقوده عاطفته القوية ، ووجدانه الحى ، وقلبه الحساس للدفاع عن الإنسانية ، والرجوع إلى الطبيعة ؛ للوصول إلى الحرية ، والعدالة الاجتماعية .

وكتب (فولتير) وقائده عقله الراجح ، وذكاؤه النادر ، واطلاعه الواسع ، وعلمه الغزير يعلى من شأن العقل ، والمواهب العقلية ، مطالباً بنقل السيطرة من رجال

الكنيسة إلى رجال العقل والتفكير، وهم الأسماء والأشراف. ولا عجب؛ فقد كان (قولتير) من طبقة الأشراف المتسامحين في دينهم، الأحرار في تفكيرهم، الذين يعتقدون أن العقل والتفكير من المواهب التي اختص الله بها الأغنياء دون الفقراء، وأن الأشراف خلقوا ليحكموا، والفقراء خلقوا ليعملوا بأيديهم ويحكموا؛ لهذا كان (قولتير) لا يعطف على الفقراء، في حين كان روسو يتألم لهم، ويدافع عن حقوقهم بجنانه وبنائه، وقلبه ولسانه. وقد قيل: إن السر في عظمة (قولتير) أنه كان ينادى بما يفكر فيه الشعب، والسر في عظمة روسو أنه كان ينادى بما يشعر به الشعب.

ولشدة الرقابة على الكتابة كان الكتاب يكتبون خفية، ولا يذكرون أسماءهم، ويضطرون أحيانا إلى طبع رسائلهم وكتبهم في هولندا، ثم يحاولون إرسالها إلى فرنسا سرا، محتالين بكثير من الحيل؛ لكي لا يعرض المؤلف للسجن في (الباستيل<sup>(١)</sup>)، وتعرض الكتب للإحراق، فكانت ترسل في صناديق كأنها بضاعة أو أغذية، مرسلة من هولندا إلى فرنسا؛ مخافة مصادرتها وإحراقها إذا عثرت عليها السلطة الحاكمة. وبمضى الوقت بدأ الناس يفكرون في الحرية، وينادون بها، ويذمون الضغط والعبودية، وثاروا ضد الاستبداد وتقييد الحرية، وأخذوا يتشجعون غير مكترئين لما ينتظرهم من عقاب أو اضطهاد. وفي ذلك قال المارشال «دي ريشليو<sup>(٢)</sup>» للملك لويس السادس عشر: «في أيام لويس الرابع عشر لم يجرؤ أحد أن يتكلم، وفي عصر لويس الخامس عشر كان الناس يتهامسون، وفي عصر جلالتهم قد رفعوا أصواتهم».

The Bastille (١)

Marshal de Richelieu (٢)

وكان الكتاب في دائرة المعارف ينشرون آراءهم الدينية والخلقية ، والاجتماعية  
والسياسية بحذق ومهارة ، وحيطة وحذر .

وفي الوقت الذي كتب فيه روسو كتابه النفيس « العقد الاجتماعي » كان من  
الخطر أن يرفع الرجل صوته ، ولكن روسو لم يبال ، ورفع صوته عالياً في فرنسا ،  
على مسمع ومرأى من الحكومة الفرنسية ، وذكر كل ما في نفسه بكل شجاعة  
وصراحة ، بروح قوى ، وأسلوب ثائر ، ولغة مؤثرة ، بشكل ليس له مثيل ، في عصر  
كانت السلطة فيه للأشراف والأمراء ، وكانوا ينظرون فيه إلى العامة والجمهور نظرة  
كلها استهانة واستخفاف واحتقار .

كتب روسو في حقوق الشعب ، وحقوق الفقراء ، وخالف الرأي السائد في  
عصره القائل: « إذا كان الحكم كالذئب وجب أن يكون المسيحيون كالغنم <sup>(١)</sup> » .  
كتب روسو ضد هذا ، ونادى بالعدالة ، وثار ضد هؤلاء الذئب ، مدافعاً عن  
حقوق الإنسانية ، وعن حقوق المسيحيين الفقراء ، طالباً معاملتهم كما يعامل الإنسان ،  
لا كما تعامل الأغنام . وقد تأثر روسو في آرائه الاجتماعية بآراء (جون لوك <sup>(٢)</sup>) ،  
وسيدني <sup>(٣)</sup> من كبار فلاسفة الإنجليز ، وبآراء أفلاطون من فلاسفة اليونان القدماء ،  
فجهز وفكر في حقوق الشعب والجمهور ، حقوق الكثرة على القلة ، والعامة على  
الخاصة ، وفكر في الناحية الإنسانية ، ونادى بقلب النظام الاستبدادي الفرنسي رأساً  
على عقب . فروسو تأثر بما كان يحدث في عصره في إنجلترا ، وما كان يحدث في  
الماضي البعيد في عصر أفلاطون وأرسطو وسقراط .

---

Even if the rulers were « as wolves » the Christians « should (١)  
be as sheep. »

Sydney (٣) John Locke (٢)

فكتاب (العقد الاجتماعي) وجد فيه عشاق الحرية الكتاب المقدس للحرية<sup>(١)</sup>، وهو في نظار فرنسا الحرة مثل (مَجْنَأَ كَارْتَا<sup>(٢)</sup>) في نظار إنجلترا، المستميتة في سبيل الحرية. ومع هذا فليس أسلوب كتاب (العقد الاجتماعي) قويا، ووثرا كأسلوب إميل . ومن الجمل التي بدأ بها العقد الاجتماعي تلك الجملة الثورية التي قالها وهي « خلق الإنسان حرا وهو مستعبد في كل مكان » .

فالإنسان في القرون الوسطى كان مستعبدا ، يعامل الفقير بمعاملة العبد ، ويقاسى كثيرا من البؤس والشقاء ، والعري والجوع ، فكيف ينبیح هذه العبودية ؟ وكيف نهرب أن يجرم الإنسان الحرية ؟ وكيف يستمر هذا العسف والاضطهاد ، والظلم والاستعباد؟ وإنا نقول: كيف خلق الإنسان حرا ، وهو إذا ولد وترك وحده في عزلة قصى نجبه ، وإذا كان في أسرة تأثر بالنظام الاجتماعي والحياة الاجتماعية لتلك الأسرة ، وأعطى من الحرية ما تسمح به أحواله ؟ ولم يولد الإنسان حرا حتى في أيام اليونان والرومان ، ولم يكن حرا في أيام بنى إسرائيل ؛ فقد كان لنبيدنا إبراهيم كل الحق في أن يضحى بابنه ، وكان الرومان القدماء يسهجون للآباء ببيع الأبناء .

ومن أقوال روسو : « إن الجوع انتحار ، ومن القتل أن يرى الإنسان أطفاله يموتون جوعا بجرمة الأغنياء . إن إرادة الشعب صائبة دائما » .

وقد تسكلم روسو كثيرا عن العدالة ومبادئها ، ووصف الحكومة الصالحة بأنها تلك التي تفكر في إرادة الشعب ، وما يشعر به الشعب ، وتعمل لسعادة المجتمع ، وانهبوس بالمجتمع ، وزيادته عددا وقوة ، ورخاء وسمة . وقد بين روسو أن السعادة

الاجتماعية لا يمكن الوصول إليها إلا بجمل الثروة بين أكبر عدد من أفراد الشعب، وقد أخذ بهذا الرأي واشنطن محرر أمريكا .

نادى روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » بالحرية والمساواة ، ولم يقصد بالمساواة أن يكون جميع أفراد الشعب متساوين في الثروة والقوة ، أو في درجة متساوية من الغنى ، ولكنه أراد بالمساواة ألا يصل الغنى إلى منتهى الثروة ، ولا يصل الفقير إلى منتهى الفقر ؛ حتى لا يستطيع الغنى أن يشتري الفقير بماله ، ولا يضطر الفقير إلى أن يبيع نفسه ؛ لشدة حاجته وقره .

فروسو كتب ضد الرق والعبودية ؛ لأن العبودية تنافي الإنسانية ، وطالب بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان في الحقوق . وبهذه المبادئ تنادى الشعوب الحديثة ، وبهذه الحقوق تطالب الأمم الحية اليوم . وقد كان (أبراهام لنكولن) كل الفضل في تحرير العبيد بأمريكا ، لأن العبودية والإنسانية ضدان لا يجتمعان .

بهذه المبادئ دافع روسو عن حقوق الإنسان ، وأسسها على طبيعة الأشياء ، وبين نظام الحكم ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين أن الحكومة هي نتيجة عقد اتفاق بين الحاكم والمحكوم يوجب على الأول أن يفكر في مصلحة الثاني وفي حقوقه ، ويطلب هذا بالقيام بالواجب نحو ذلك . وإنما من القائلين بأن الحكومة يجب أن تعمل لصالح المحكومين ، لصالح الشعب والمجتمع ، وتفكر في المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة ، وتعطي كل ذي حق حقه ، وتنتظر من كل فرد أن يقوم بواجبه ، وأن يصل إلى ماله من حقوق ؛ بحيث لا يكون هناك فرق بين الغنى والفقير في المعاملة ، ولا بين القريب والبعيد فيما له من حق أو ما عليه من واجب . وهذا ما نادى به كبار

المصلحين من السياسيين وعلماء الاجتماع في القرن العشرين، وبنادى به اليوم، من أن الحكومة هي الأمة، والأمة هي الحكومة. يجب أن تكون الحكومة من الشعب، وتعمل للشعب، وتفكر في صالح الشعب، والنهوض به عليا وصحيا، وخلقيا واجتماعيا، وزراعيًا وتجاريًا، وصناعيًا وفنيًا، وحريريًا وبحريًا؛ بحيث تفكر في كل ناحية من نواحي الإصلاح الذي يتطلبه الشعب، فتعمل لإصلاح ما فيه من عيوب، وتقويم ما به من اعوجاج؛ للسير به في الطريق المستقيم؛ طريق الكمال أو ما يقرب من الكمال في جميع مرافق الحياة.

وحيثما كتب روسو «العقد الاجتماعي» كان كتابه هذا إنجيلًا للثورة الفرنسية بعد وفاته. ففي سنة ١٧٨٨ م كان (مارات<sup>(١)</sup>) يقرأ العقد الاجتماعي في شوارع باريس، فيتجمع حوله كثير من المستمعين والمتظاهرين والناشرين، ويهتفون له. وقد اقتبس منه خطباء الجماهير والثورات كثيرًا في كل مجتمع من المجتمعات، واحتفال من الاحتفالات. ووجد فيه الشبان من الحاميين مثلهم الأعلى لنظام الحكم، وقرأه الجنود في معسكراتهم، وعده الصناع والعمال والفقراء المدافع عن حقوقهم، المنظم لأحوالهم، المطالب بحقوقهم. وقد أعجب به رجال الفن والصحفيون ورجال الكنيسة كل الإعجاب؛ لما فيه من منطق قوى، وعاطفة ملتبهة، وتضايًا صائبة. أعجب به الخاصة والعامة، أعجب به النبلاء والفقراء، أعجب به الأمراء والأشراف؛ لعباراته العذبة، وحججه القوية، مع أنه كان ضدهم، ومع أنهم كانوا في أنفسهم يحتقرون الطبقة العامة؛ طبقة الدهماء، وينظرون إلى الفقراء نظرة السادة إلى العبيد،

---

(١) Marat : هو جن بولمارات (Jean Paul Marat) من أكبر رجال الثورة الفرنسية، ولد في ٢٤ من مايو سنة ١٧٤٣، وقُتل في ١٣ من يولية سنة ١٧٩٣ م.

نظرة الحاكم المستبد إلى المحكوم الذليل . وكانوا ينظرون إلى تلك المبادئ التي نادى بها روسو من الإخاء والحرية والمساواة نظرة كلها تشكك وتردد . ولم يذهب نابليون بعيدا حينما قال : « لو لم يكن روسو ما حدثت الثورة الفرنسية » . فروسو قد بذر بذور الثورة فيما كتب ، وشاركه في العمل لها عدوه فولتير ، وكثير غيرهما من الكتاب والفلاسفة ، والمصلحين ، وقادة الرأي والعمل . وقد اعتقد هؤلاء المصلحون من قادة الرأي أن الشبان هم الذين سيعيشون ويرون ما يحدث من إصلاحات بعد الثورة الفرنسية .

استمر الشقاء سنة بعد أخرى ، وزادت المظالم حتى طفا الكيل ، ونفذ الصبر ، وأخذ الفقراء يشورون لما لحقهم من عسف وظلم ، فثاروا في المقاطعات ، وكثرت الاحتجاجات في كثير من الجهات ، واشتدت مظاهرات المرأة والجياح والمظلومين من الفقراء ، فبذور الثورة الفرنسية قد بذرت في أوجوب قبل الثورة بعشرات السنين . ولقد كتب كثير من القادة كتبا ورسائل عن النظام الطبيعي ، وحقوق الإنسان ، من الإخاء والحرية والمساواة ، ولكن لم يستطع أحد أن يكتب بقلب كقلب روسو ، أو روح كروحه ، أو أسلوب كأسلوبه . لم يستطع أحد أن يصور شعور الشعب كما صوره روسو بقلم من النار . ولا عجب ؛ فهو ابن الشعب ، وابن الطبيعة ، وابن الماطفة ، عاش طول حياته بين الشعب ، وشعر بما يقاسيه من ظلم وقسوة واضطهاد . وقد كتب فولتير فيما يفكر فيه الشعب ، ورجع إلى العقل ، وكتب في تمجيد الشعب من العادات والتقاليد الدينية ، ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه روسو في إثارة الشعب . ولا غرابة ؛ فقد كان من طبقة الأشراف ؛ تلك الطبقة التي تحتقر العامة والدعاه ، وهو التماثل :

« إنهم أغبياء متوحشون ، إنهم ثيران لا يحتاجون إلا إلى منخس ينخسون به ،  
ونير يوضع على رقابهم ، وحشيش يأكلونه » .

فهل تعجب إذا قدس العامة روسو ، واتخذوا مبادئه عقيدة لهم ، وعدوه منقذا  
يفكر في إنقاذهم ، وأحبوه محبة تقرب من العبادة ؟ وقد كثر المعجبون به من طبقات  
الأشراف .

بدأ روسو يفكر فيما يمكن تنفيذه من المبادئ والإصلاحات ، وقد صرح بأن  
القوانين يجب أن تكون ملائمة للشعب والبيئة والعصر ، وإلا أضرت الشعب ،  
وكان مآلها الإخفاق . وإذا أردنا الإصلاح وجب أن نفكر في البيئة ، وما يلائم  
تلك البيئة والعصر ، حتى تنجح هذه الإصلاحات ، وتؤتي ثمارها ، ولاتكون نتيجتها  
الإخفاق ؛ كالإصلاحات الفجة التي حاولها بطرس الأكبر<sup>(١)</sup> في روسيا ، فليس المهم  
وضع القوانين ، ولكن المهم العمل بها وتنفيذها . ليس المهم التكلم في الإصلاح ،  
ولكن المهم الإصلاح بالفعل .

وقد قال ( جورج ساند<sup>(٢)</sup> ) : إن كتاب « العقد الاجتماعي » كان من أسباب  
الثورة الفرنسية ، وانتفع قواد الثورة بما فيه من مبادئ وآراء . وقد يظن  
أن الحكومة كل شيء ، وأن الفرد ليس بشيء . وقد كان لروسو كل الفضل في أن  
تفكر الحكومات (الديمقراطية) في كل فرد من أفراد المجتمع ، وفي المساواة بين الأفراد  
في الحقوق والواجبات ، وفي الحكم على من يعارض الإرادة العامة للشعب من الأفراد .  
وبهذه المبادئ التي نادى بها روسو وصل الإنسان إلى حقوقه وهي « الحرية والمساواة  
والإخاء - أو الموت » .

Peter the Great in Russia (١)

George Sand (٢)

وليس معنى الحرية في نظرنا أن نتعدى على حقوق أى إنسان ؛ بل معناها أن نحافظ على حقوق كل إنسان .

ولم تؤثر مبادئ روسو في فرنسا وحدها ، بل كان لها أكبر الأثر في الولايات المتحدة بأمريكا وغيرها من الأمم (الديمقراطية) ؛ فقد أعجب بها (توماس جيفرسون<sup>(١)</sup>) ثالث رؤساء الولايات المتحدة بأمريكا بعد تحريرها . وبهذا نادى بأن الناس جميعا خلقوا متساوين ، وقد وهب الله لهم حقوقا لا تباع ولا تشرى ، تلك الحقوق هي الحياة والحرية والسعادة . وقد اقتبس هذه الآراء من روسو .

وحينما قرأ (فردريك) الأكبر<sup>(٢)</sup> كتاب (دى هلباك) : (نظام الطبيعة)<sup>(٣)</sup> قال : « لو كان لدى مقاطعة أريد عقابها لأعطيها هؤلاء الفلاسفة ليحكموها ؛ ومعنى هذا أن (فردريك) الأكبر لم يرق في نظره مبادئ روسو ، ولا آراء (دى هلباك) ، ولا غيرها من القادة والمصلحين الذين نادوا بالإخاء والحرية والمساواة بين أفراد الشعب ، وفكروا في حقوق الإنسان ، ودافعوا عن الإنسان .

وقد اتبع الفرنسيون إرشادات روسو ، ونفذوا مبادئه التي ذكرها في العقد الاجتماعي . ولسكى تنقل شعبا من العبودية إلى الحرية ، ومن (الأرستقراطية) إلى (الديمقراطية) يجب أن تكون هذا الشعب من جديد ، وتجيئه من جديد ، إذا أردت أن تجعله شعبا حرا كريما ، يقدر الحرية ، ويستमित في سبيلها ، ويطالب بها ، ويعمل للوصول إليها ؛ بأن تزيل أسباب التأخر ، وتصلح ما به من عيوب ، وتقوّم ما فيه من اعوجاج ،

---

(١) Thomas Jefferson : أديب أمريكي ، وعالم سياسي ، وكان ثالث رؤساء الولايات المتحدة بأمريكا .

(٢) Frederich the Great

(٣) D' Holbach 's «System of Nature»

وتستأصل ما به من رذائل ، وتغير نظمه وعاداته ، وتعوده تحمل المشاق والصعاب ،  
وقلة القول ، وكثرة العمل ، وتربيته تربية وطنية ، تربية قومية تعاونية ، تربية كاملة ،  
حتى يصير شعبا قوى الجسم ، منظم التفكير ، مهذب الخلق ، قوى الإرادة والشخصية ،  
حتى الوجدان ، فصيح اللسان ، يستطيع أن يعمل بيده ، ويفكر بعقله ،  
ويشعر بقلبه .

### (٥) اعترافاته<sup>(١)</sup>

دون روسوقصة حياته الخاصة في اعترافاته ، وقد أُلّف الجزء الأول منها سنة ١٧٦٦ م ،  
واستمر في الكتابة حتى انتهى من الجزء الثاني في سنة ١٧٦٨ م . وقبل أن يكتب  
جمع ما لديه من مذكرات ورسائل وأوراق ليستعين بها على تذكر ما مر به في حياته .  
وقد وضع لنفسه خطة هي أن يظهر للعالم الطبيعة الحقة للإنسان ، وكان مثال المؤرخ  
الأمين ، والقاضي العادل الذي يبحث وراء الحقيقة . ولم يخف في هذه الاعترافات  
خطيئة من الخطايا ، ولم يزد حسنة من الحسنات . كتب هذه الاعترافات وهو يعتقد  
أن العالم كله لا يستحق شيئا ، في وقت كانت تعد كتابة الشخص تاريخ حياته شيئا  
خياليا ، ولكن في نظر روسو كان تاريخ الحياة شيئا حقيقيا يمثل حياته كما هي ،  
ويصورها كما كانت . وقد كتب كثير من المؤرخين المهذبن شيئا عن حياتهم  
الخارجية ، وصوروها بصور زخرفية ، ولم يذكروا شيئا عن حياتهم الداخلية .  
أما روسو فقد وصل إلى أعماق حياته الداخلية والخارجية ، ولم يخف شيئا على التاريخ ،

مهما يكن ذلك الشيء مكروها أو منبوذا ، ولم يصف شيئا يكسب به شعور غيره أو إعجاب به ، بل تمسك بالحقيقة ، ووقف بجانبها ، ورجع بذاته إلى أيامه الأولى ، ودون ما تذكر من تاريخ حياته بكل صراحة وإخلاص ، وذكر ما قام به من فضيلة ، وما ارتكبه من رذيلة . وحاسبه ضميره الحى على كل ما ذكر ، وصور نفسه كما صورته الطبيعة ، وكما خلقه الله .

كتب روسو كثيرا من هذه الاعترافات وهو فى المجازة ؛ وهو شديد الاضطراب ، كثير الهواجس ، لا يثق بأحد ، بل يسيء الظن بكل إنسان ، حتى الخدم والجيران ؛ فقد كان يعتقد أن الناس جميعا أعداء له ، وأنهم جواسيس لدافيد هيوم ، يتآمرون عليه ، ويراقبونه فى حركاته وسكناته ليلا ونهارا ، شأن الرجل المريض النفس الذى عبس له الدهر ، وتفكر ، ولازمه البؤس والشقاء طول حياته ؛ فاستولت عليه الهواجس ولازمته الموم .

ولم يدون أحد تاريخ حياته بكل شجاعة وصراحة كما فعل روسو فى اعترافاته . وفيها يقول : « لقد بدأت مشروعا ليس له مثيل من قبل ، ولن يكون له مثيل فيما بعد . فأنا أريد أن أظهر للعالم رجلا مثل الطبيعة الحقة فى جميع مظاهرها » . وهذا الرجل هو روسو نفسه ، هو روسو الذى يشهر بنفسه وقلبه ، ويعرف غيره من الناس . وقد اعتقد أنه لم يخلق كأي رجل آخر فى الوجود ، وقال : « إذا لم أكن أنا أحسن فأنا على الأقل مختلف عن غيرى » .

وقد وضع نفسه فى كتابه كما يوضع التهم أمام القضاء ، وقال بصوت مرتفع : « انظروا ماذا فعلت ، وفيم فكرت . وكيف كنت ؟ لقد ذكرت كل حسنة وسيئة ،

ولم أخف خطيئة ، ولم أزد فضيلة ، بل أظهرت نفسى محتقرا تبيحا حينما كنت محتقرا وتبيحا ، وكرما عظيما حينما كنت كذلك . أظهرت نفسى كما خلقها الله . وقد جمع حوله كثيرا من أصدقائه ليسموا اعترافاته ، وأبيكوا على آلامه ، وايتخللوا لشقائه . وبهذا الإخلاص النادر قص روسو على القارئ بشكل لا نظير له حسناته وسيئاته ، وفضائله وورذائله ، وقصصه الغرامية ، وانفعالاته وعواطفه . وفي استطاعة روسو أن يفخر حقا بالأمانة التي أظهرها أمام العالم ؛ الأمانة في ذكر الحقيقة عارية مجردة ، لا زخرفة فيها ولا كذب . وقص علينا ما حدث له حتى الحوادث التي لا يذكرها الإنسان لأقرب صديق من الأصدقاء . فهو قد ذكر الحقيقة كما هي ، وتكلم عن حياته المنزلية ، والريفية والمدنية ، حياته الطبيعية ، حياته المشردة ، بأسلوب عذب جميل ، وافية واضحة مؤثرة . ووصف الحياة الاجتماعية في عصره بمهارة نادرة ، ووصف المناظر الريفية وصفا دقيقا جميلا ، يدل على قوة في التذكر ، وقوة في التخيل ، وقدرة على الكتابة .

وقد أساء الظن بكثير من أصدقائه وصديقاته ، واتهم بعضهم بسرقة أوراقه ، وبعضهم بالكذب والغيرة ، ولم ينبج من عدائه إلا القليل . وقد مسّ شعور الكثيرين منهم .

ومهما يكن من حبه لنفسه وقلة ثقته بغيره فلا يمكننا أن ننكر مشاركته المظلومين في شعورهم ، وإحسانه إلى الفقراء من جيرانه ، مع شدة حاجته وفقره ، وشجاعته في ذكر آرائه ، ومناداته بها في وقت اشتدت فيه الرقابة على الكتابة . ولا يمكننا

أن نفسى اعتزازه بنفسه ، وعدم خضوعه ومجاملته للأشراف من الأغنياء ، مع إعجابهم به وحاجته إليهم .

واشروود خياله وشدة إحساسه تملكته الهواجس من كل جانب ، واضطرب عقله ، وزادت آلامه وأحزانه ، وترك القراءة والكتابة إلا كتابة الرسائل، لتعبه وإجهاده ، وقد صرح فى أواخر حياته بأن إمساك القلم لكتابة رسالة من الرسائل مثل رفع حمل من الحديد .

وفى سنة ١٧٧٠ م بدأ يقرأ شيئاً من اعترافاته فى منزل أحد أصدقائه ، فاحتجت صديقتة (مدامدى إبنائى<sup>(١)</sup>) لدى الشرط ، طالبة وقف القراءة؛ خوفاً من أن يذكر شيئاً يمسها . فوقفت القراءة . واحتفظ روسو باعترافاته لنفسه ، وأوصى ألا تنشر إلا بعد وفاته . وقد نشرت بما فيها من اتهامات بين سنة ١٧٨١ ، ١٧٨٨ م ، فاستحسنها من استحسن من الأصدقاء ، واستقبلها من استقبل من الأعداء .

وفى اعترافات روسو كثير من الحقائق المحزنة ، والخنازى المؤلمة ، والمظالم الفادحة . فى أسلوبها وضوح وجمال ، وعظمة وصراحة ، وقوة وروعة . فيها أمور تتبرأ منها الإنسانية ، وتنفر منها العدالة ، أثارت ضده الأغنياء ورجال الدين ؛ فقد ذكر كل ما عرفه عن هؤلاء وأولئك . ولم يخف شيئاً مما عرف ، من أشياء تشمل فيها الرذيلة ، ويبدو فيها العسف والجور . كتب فيها عن نفسه وعن غيره ، عن الأحياء والأموات ، بكل شجاعة وإخلاص .

وقد ذكر في اعترافاته بعد أن هرب من أستاذه سنة ١٧٢٨م. يقول: «كنت أتمنى أن أستمع على مذهبي الديني<sup>(١)</sup> في بلادي وموطني، بين أسرتي وأصدقائي . كنت أتمنى حياة سلمية هادئة ، أعمل عملاً يلائم ذوق ، وأعيش بين جماعة يتصل بها قلبي . كنت أتمنى أن أكون مسيحياً طاهراً ، ووطنياً مخلصاً ، وأباً باراً ، وصديقاً وفياً ، وعاملاً ماهراً . كنت أتمنى أن أكون رجلاً كاملاً في كل ناحية من النواحي . كنت أتمنى أن أكون سعيداً في كل أوقاتي وأحوالي ، أحياء حياة هادئة ، وأموت ميتة هادئة بين وطني وأسرتي» .

---

(١) كان بروستانتياً في مذهبه .

## سنواته الأخيرة

قضى روسو السنوات الأخيرة من حياته فقيرا معذبا ، مضطرا با مشردا ، كما قضاهما في أيامه الخالية ، وطفق ينتقل من بلدة إلى أخرى ، ومن مكان إلى آخر متسقا ؛ فقد هرب من فرنسا إلى إنجلترا بعد كتابة إميل خوفا من الاعتقال ، وأعجب به كثير من الإنجليز ، وعين له الملك «جورج» الثالث معاشا قدره مائة جنيه في السنة ؛ ليستعين به على الحياة ، ولكنه لم يتسلم هذا المعاش إلا مرة واحدة ، ثم تركه ، فاستولى على المتأخر له أحد أصدقائه ، فتألم منه روسو كل الألم ، ومزق قرار المعاش ، ولم ينتفع به بعد ذلك ؛ لأنه كان يعتقد أن (دافيد هيوم<sup>(١)</sup>) هو الذي سعى في تقرير هذا المعاش له ، وكان روسو يعتقد إن خطأ أو صوابا أنه عدوله .

أخذ روسو و « تريز » يهيمان على وجهيهما لعلهما يجدان شيئا من راحة البدن أو راحة العقل ، وقد رضيا بما قضى الله عليهما ، وأخذا ينتقلان من جهة إلى أخرى لا يعرفان لهما مقرا ، ولا يجدان لهما مأوى ، وليس معهما إلا قليل من المتاع . وحينما كانا في بلدة « بَرْجُون<sup>(٢)</sup> » أقام روسو احتفالا صغيرا في فندق متواضع مع « تريز » تخيل أنه احتفال بزواجهما ، فجلس معها على مائدة ، ومعهما ضيفان من خيار الناس ، وأعلن أمامهما أنها زوجته .

وفي سنة ١٧٦٩ م ذهبا إلى بلدة « مونسكين<sup>(٣)</sup> » واستأجرا بيتا من إحدى السيدات مكثا فيه ثمانية عشر شهرا ، ففي الصيف كان يقضى وقته في الغابات وفي الجبال ،

و يتمتع بالهواء الجميل ، والطبيعة الساحرة ، فينسى أوهامه وهواجسه ، ويشق أن أعدائه لا يستطيعون أن يجدوه في هذا المكان ، وأخذ يشغل نفسه بدراسة علم النبات ، والبحث عن كل نبات جديد ، والتفكير في كل نبات نادر ، ويرقب نموه ، ويقدمه بالعبارة ، وأخذ يربي الطيور في حجرته ويستأنسها .

وحينما عاد إلى باريس بعد سفره إلى إنجلترا عاد خفية متنكرا في يولييه سنة ١٧٧٠م . خوفا من أن يعرف فيعتقل ، ومكث بها سبع سنوات لا يثق فيها بأحد ، ولا يجب أن يسير في شوارع باريس ، بل يسير في الضواحي ؛ ليتمتع بالطبيعة وجمالها ، والطيور وتغريدها ، والشمس وغروبها . وقد ابتعدت مؤامرات العالم عن ذاكرة هذا الشيخ الهرم بعض الوقت ، وقد سئمته زوجته وأهملته في شيخوخته ؛ فقد كان يمكث أياما لا يكلمها كلمة واحدة ؛ إذ كان في شغل عنها لكسب عيشه من عرق جبينه واشتغاله برسائله ، وتفكيره في أعدائه وحساده . ويجب أن نأسف لتلك المرأة المسكينة في حياتها مع رجل لم تفهمه في أيام نجاحه ، ولا في أيام شقائه . وقد كتب لها روسو رسالة فيها كثير من العاطفة والشعور يدافع فيها عن إهمالها ، وتدلل على حياة بائسة شقية في سنواته الأخيرة . ففي أشهر الشتاء سنة ١٧٧٠م . أحاط الثلج بكل مكان ، واخترق الحجر التي يقم فيها حتى كانت أصابعه ترتعش وهو جالس بالقرب من النار ، وفي هذا الوقت من البؤس والشقاء ألف الأجزاء الأخيرة من اعترافاته ، واعتقد أنه يرى الإنسان دائما كاذبا خائنا ، شريرا متظاهرا ، متسترا حاقدا ، يظن بالناس الظنون . تمنى روسو أن يودع هذه الحياة ، وهذه المتاعب ، وتناق إلى الوقت الذي يفارق فيه ذلك البؤس يرى حياة أسعد من هذه الحياة .

كان روسو في سنواته الأخيرة يكسب عيشه بنسخ الموسيقى ، وكتابة خمس صفحات كل يوم ؛ كي يجد القوت الضروري للحياة ، فكان يستيقظ صيفا في الساعة الخامسة صباحا ، ويشغل بنسخ الموسيقى حتى منتصف الساعة الثامنة ، ثم يتناول قليلا من الطعام ، ويتعهد ما لديه من نبات ، ثم يرجع ليعمل حتى وقت الغداء ، فيتغذى في الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم يخرج إلى المقهى ليقضى بعض الوقت ، ويسير سيره العادي اليومي وحيدا ، ثم يعود ليلا ويذهب إلى الفراش في منتصف الساعة العاشرة .

وبنسخ الموسيقى - وهو عمل آلي - كان يكسب عيشه ، ثم يرجع إلى عمله العقلي . وكان يسكن في ذلك الوقت وهو في باريس في الطبقة الخامسة من فندق في شارع ( بلاتريير<sup>(١)</sup> ) يزوره كثير من المعجبين به في كل وقت ممكن ، حتى سَمَّ الزائرين ، ورفض أن يقابل أحدا إلا من كان له عمل معه . وزوجه الآن مولعة بالتكلم عن زوجها (جان جاك) للزائرين ، وتشتغل بالتطريز في وقت تأتي فيه العاصفير المستأنسة لتلقط الفئات من النوافذ المفتوحة . وروسو لابس معطفه ، وعلى رأسه فانسوة بيضاء وهو ينسخ الموسيقى . وكان في حجرته عصفوران يفتح لهما إذا أرادا الخروج أو العودة ، فكان لهما كالحارس .

وكان روسو مع نفوره من المجتمع وحبه للمزلة يحب أحيانا أن يذهب إلى المجتمعات أو المقاهي ؛ للبحث والمناقشة في الموسيقى وغيرها مع جُلُوك وجِرِّ بِيْرِي<sup>(٢)</sup> . وقد حدث ذات مرة أن ( سانت بِيِير<sup>(٣)</sup> ) وهو من أصدقائه المعجبين به أرسل إليه هدية من بن

(١) Rue Platriere ويسمى الآن شارع جان جاك روسو .

(٢) St Pierre (٣) Gluck and Gretry

جيد اشتراه من الخارج ، فكتب إليه روسو يعنفه ويؤنبه قائلاً : ( إن الصلة بيننا تكاد تكون محدودة ، وقد بدأت ترسل إلى هدايا ، فاختر لنفسك أن تأخذ البن ثانية ، أو لا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك . ) وقد اضطر صديقه أن يقبل منه هدية بدل هديته .

وذات يوم زاره ( رُولِيَّير ) أحد معارنه ، فقابله روسو ببرود ، ولم يعره نظرا ، واستمر ينسخ الموسيقى وقال : « يجب أن أعيش من عمل يدي » ولكن الزائر لم يتحرك ولم يتكلم ، واستمر جالسا بالقرب من النار ، فنظر إليه روسو شزرا وقال : « م . دي رُولِيَّير<sup>(١)</sup> ، لقد أتيت لمعرفة ماذا لدى في القدر . حسنٌ جداً سأشبع رغبتك في حب الاطلاع . إن في القدر رطلين من اللحم ، وجزرا وبصلا ، وقليلاً من القرنفل » . فخرج الزائر ممتعضا وخجلا ، ولم يتمتع بحديث روسو .

كان روسو إذا ترك باريس وذهب إلى الريف بدأ البشر على وجهه ، وأبرقت عيناه ، وقد قال مرة لزوجته : « إذا رأيتني مرثلاً ولا أمل في شفائي في يوم من الأيام فأتِ بي محمولا إلى الغابة حتى تعود إلى صحتي » .

ولرذه النفسى كان يعتقد أن كل إنسان يحتقره ، وأن الجواسيس ترقبه في كل مكان ، وأن الجميع أعداء له . وقد وهب روسو خيالا نادرا ، وذكاء عظيما . وكان يفكر في أمور نبيلة ، يسير وراء عواطفه ، يعيش في الحاضر، وينسى الماضي ، ولا يبالي بالمستقبل . كان سيئ الخط يشعر بالوحدة ، ويحب العزلة ، ابتعد عنه أقرب الناس إليه من الأصدقاء ، ولم يشعر أحد بما شعر به من الظلم .

وفي السنتين الأخيرتين من حياته ترك نسخ الموسيقى لضعفه وعجزه وشيخوخته، فأصبح معدما ، لا يجد الغذاء الضروري للحياة، ولا الوسائل الضرورية للعيش .

وفي مايو سنة ١٧٧٧م تمنى أن يقبل هو وزوجه في مستشفى أوماجا ، وأن يكتفيا بأقل الملابس ، وأقل الطعام ، بشرط أن يشعرا بشيء من الراحة . واستعد روسو أن يسلم دخله السنوي وهو ألف وأربعمائة فرنك . وفي ذلك الوقت اشتد ضعفه ، وكثرت أوهامه ، وكان أحيانا يسير في الفسق في الضواحي ، ويتحدث مع من يقابله من الأطفال ويقبلهم ، ويعطيهم شيئا من الحلوى ، فأنه الأطفال وأحبوه . فإذا رآه أحد المارين خاف روسو أن يتبعه ، واختفى في أى مكان . وحينما سمع بموت الملك لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤م قال : « آه يا إلهي ! ما أشد حزني ! فستل : لماذا تمخزن؟ فقال : لأنه كان يقامنى كراهية الشعب ، أما الآن فيجب أن أحتمل هذه الكراهية وحدى » .

مسكين روسو لم ير السمادة إلا في الأيام التي نسى فيها أعداءه ، وهو في السنتين الأخيرتين من حياته . كان لا يستطيع أن يسير كثيرا في الريف ، ويتمتع بالطبيعة كما كان في أيامه الخالية . فكان يجد لذة في تنسيق ما لديه من نبات ، وتذكر أيامه الماضية وهو بين أحضان الطبيعة ، والمناظر الجميلة التي رآها ، والغابات التي شاهدها ، والجبال التي تسلقها ، والصخور التي وقف فوقها . كان يتذكر حياته الماضية ، وما سر به من بؤس وشقاء ، وما لحقه من فقر وظلم ، وألم وحزن ، فيأسف لما مر به في حياته . كان إذا تذكر حاضره حزن ، واعتقد أن سكان باريس ضده ، وأنه لو ترك

منزله رموه بالحجارة ، وتخيل أن كل أوروبا تنظر إليه نظرتها إلى الرجل الغريب المتوحش الخطر .

وفي السنة الأخيرة من حياته وهي سنة ١٧٧٨ م قدم إليه أحد أصدقائه وهو ( م . دى جيراردين <sup>(١)</sup> ) كوخا جميلا بين أملاكه في ( إزموننڤيل <sup>(٢)</sup> ) وهي تبعد عشرين ميلا عن باريس . وفي الوقت الذي ترك فيه مسكنه الأخير في باريس إلى الأبد في شارع ( بلاثيرير <sup>(٣)</sup> ) ويدعى الآن شارع جان جاك روسو <sup>(٤)</sup> - كانت باريس محتفلة بعودة فولتير ، بعد أن نفي ستا وعشرين سنة ؛ فقد عاد إليها في شيخوخته منتصرا ، واستقبله الشعب استقبالا عظيما ، وازدحت الملاهي كل ليلة بمن يصفق لفولتير إعجابا برواياته التي تمثل في حضوره . وامتلات الغرف والأبهاء في قصره بالزائرين من النبلاء ، وملت الشوارع بالعامّة في أثناء مروره احتفالا بعودته . في هذا الوقت قد نسي جان جاك روسو كل النسيان في كوخه المتواضع ، وفي فقره المدقع . مكث روسو السنة الأخيرة من حياته في تلك البقعة الهادئة الجميلة في كوخه ، بين الغابات والحدائق في ( إزموننڤيل ) ، وهو راض بتلك الحياة ، سعيد بها ، يسلى نفسه بذكرياته الماضية ، ويتعهد النبات ، ويستأنس بالطيور ، ويعلم ابن مضيفه ولم تمض بضعة أسابيع حتى عاد الشقاء إليه ثانية ؛ فقد عادت إليه أوهامه وهو اجسه ، وتخيل أن أعداءه يحيطون به ، والجواسيس يرتبونه ، فرجا أحد أصدقائه أن ينقله إلى المستشفى ، أو إلى مكان آخر ، وحاول أن يهرب من هذا المكان سنة ١٧٧٨ م ،

Rue Platriere (٣) Ermonenville (٢) M. de Girardin (١)

Rue Jan Jacques Rousseau (٤)

فلم يستطع ؛ لأنه لم يكن لديه شيء من المال . ولا ندري لماذا رفض أن يتسلم المعاش الذى قرره له جورج الثالث ملك إنجلترا .

بدأ روسو حياته فقيراً ، وانتهى منها فقيراً . بدأ حياته يتيمًا مشرداً ، وانتهى منها شقيماً معذباً . وقد قضت عليه الهواجس التى سيطرت على نفسه ، وتخيل أنه سجين ، وليس لديه وسيلة للنجاة .

### وفاة روسو :

وفى اليوم الثانى من يونيه سنة ١٧٧٨م ترك الحياة وما فيها ؛ من متاعب وآلام ، وأحقاد وأحزان ، ومات بفتنة ميتة مروعة . وقد قيل إنه انتحر ، وقال آخرون إنه سمّ نفسه ، وادعى كثير أنه أطلق على نفسه الرصاص . وقد شهد صديقه ( م . دى جيراردين ) أن وفاته طبيعية ، وقرر الطبيب بعد الفحص أنه مات بسكتة قلبية ، ولكن موته الفجائى أنار كلام كثير من الناس حوله .

ومهما يكن من شيء ، فقد فارق هذه الحياة الشقية البائسة . وقبل وفاته قال لزوجته : « أتبكين لسعادتى ؟ أتبكين لتلك السعادة الأبدية التى لا يستطيع أحد أن يعكر صفوها ؟ إني أموت هادئاً ؛ لأننى لم أفكر مطلقاً فى إيذاء أحد ، وإنى واثق برحمة الله » .

وقد استراح روسو من المظالم فى تلك الحياة ، ولا يستطيع الآن أحد أن يزجه من أعدائه أو أصدقائه . وقد استراح قلبه الفياض ، وعقله المتقد ، وترك اسماً خالداً بين الأسماء الخالدة ، اسماً عظيماً بين عظماء الرجال ، وأثراً كبيراً بين الآثار العلية والأدبية ، وقد دفن فى ليلة هادئة من ليالى الصيف القمرية ؛ دفن بين أشجار

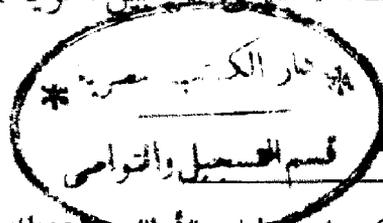
الحور في (إزمورن نفيل)، تلك البقعة التي كان يحبها في حياته . واستمر بها حتى أتى  
الثائرون بمد انتصارهم في الثورة الفرنسية ، وحلوه إلى باريس ، ودفنوه حيث يدفن  
العظماء<sup>(١)</sup> ، بعد أن مكث ست عشرة سنة بين أحضان الطبيعة التي كان يحبها  
ويعشقها ؛ واحتفل بنقل رفاتة احتفالاً عظيماً . احتفل به الشعب الذي وهب حياته له ،  
والإنسانية التي دافع عنها ، والحرية التي نادى بها ، وردت العامة الجميل لمن أعطاها  
الجميل ، واحتفلت به بمد وفاته الاحتفال الذي كان يليق به في حياته ، ونقلته إلى  
المقبرة الوطنية لعظماء الرجال .

وقد ترك روسو من الآثار ما خلد اسمه وحياته بين علماء السياسة وعلماء الاجتماع ،  
وعلماء الاقتصاد ، وقادة التربية .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المرين في القرن العشرين عالة عليه ، وقد انتفعوا  
بآرائه ومبادئه في التربية وعلم النفس . وقد دافع عن الفقراء ، وما لحقهم من ظلم  
واستعباد ، وطالب بالحرية والإخاء والمساواة . قال نابليون : « لولا روسو ما حدثت  
الثورة الفرنسية » . وقد وهب حياته للإنسانية ، وعاش في سبيل الإنسانية ، واضطهد  
كثيراً من أجل آرائه ومبادئه ، وتحمل كثيراً في سبيل تلك المبادئ . ولا عجب ؛  
فالعظمة في نظرنا يجب أن تشتري ، ولا بد لها من ثمن ، ولا ثمن لها إلا تحمل  
المتاعب والآلام .

ويعد كتابه العقد الاجتماعي « إنجيل الحرية » ، وكتابه إميل « إنجيل

التربية » .



## ( أ ) أهم المراجع العربية

- (١) جان جاك روسو، حياته وكتبه، تأليف الدكتور محمد حسين هبكل باشا.
- (٢) جان جاك روسو، وآراؤه في التربية والتعليم، تأليف محمد عطية الإبراشي.

## ( ب ) أهم المراجع الإنجليزية

- (1) Emile on Education, by Jean Jacques Rousseau.
- (2) Rousseau, by John Morley.
- (3) Rousseau, by Thomas Davidson.
- (4) Rousseau, by Henry G. Graham .
- (5) The Teacher's Encyclopaedia, Vol. V11 P. 167 - 172
- (6) The Confessins of Rousseau, by Jean Jacques Rousseau.
- (7) The Social Contract, by Jean Jacques Rousseau.

## فهرس الموضوعات

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
مقدمة .	٥ - ٣
طفولة روسو وحياته الأولى .	١٢ - ٧
روسو في غلومته وشبابه .	١٧ - ١٣
روسو في عهد الشباب .	٢١ - ١٨
روسو والسيدة الإيطالية .	٢٥ - ٢١
روسو بمدينة آنسى مع (مدام دي وارنر) .	٣١ - ٢٦
روسو يعلم الموسيقى .	٣٢ - ٣١
سفره في رحلة إلى باريس .	٣٤ - ٣٢
حالة الفقراء في عصره .	٣٦ - ٣٤
روسو في مدينة ليون .	٣٨ - ٣٦
روسو بمصلحة المساحة .	٣٩ - ٣٨
حياته في شاربمتر مع (مدام دي وارنر) .	٤٠ - ٣٩
خطته اليومية ودراسته .	٤٤ - ٤٠
روسو في باريس .	٤٦ - ٤٤
(تريزلى فاسور) شريكته في حياته المقبلة .	٥٤ - ٤٧

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
رسالته إلى (تريزلى فاسور) شريكته في حياته .	٥٥ — ٥٤
رسالته إلى (مدام دي فرانكل) يدافع عن نفسه .	٥٨ — ٥٧
إعلان خطبته واحتفاله بزواج (تريزلى فاسور) .	٦٠
أخلاق روسو وصفاته .	٦٢ — ٦١
تناقضه الغريب .	٦٣
أثر البيئة العلمية في روسو .	٦٤ — ٦٣
نجاحه الأدبي : رسائله وكتبه .	٦٥
رسالته في أثر العلوم والفنون في تهذيب الأخلاق أو إفسادها .	٧١ — ٦٥
رسالته في التفاوت أو عدم المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان .	٧٣ — ٧١
رسالته في الإقتصاد السياسى .	٧٩ — ٧٤
كتاب العقد الاجتماعى .	٨٨ — ٧٩
اعترافاته .	٩٢ — ٨٨
سنواته الأخيرة .	٩٩ — ٩٣
وفاة روسو .	١٠٠ — ٩٩
أهم المراجع العربية .	١٠١
أهم المراجع الإنجليزية .	١٠١
فهرس الموضوعات .	١٠٣ — ١٠٢
فهرس أعلام النساء والرجال .	١٠٨ — ١٠٤
فهرس أعلام الأماكن .	١١٠ — ١٠٩

# فهرس

## أعلام الرجال والنساء

( أ )

إبرهيم ، الرسول : ٨٢

أثانسياس بولوس ، الأب : ٣٣

أديسون : ٥٠

أرسطو : ٨١

أفلاطون : ٨١ ، ٥٦

( ب )

باسيل ، مدام : ٢١

بافون : ٧٠ ، ٤٥

بأكل : ٢٤

برنارد : ١١ ، ١٠

بطرس الأكبر : ٨٦

بفندورف : ٤١

بلوتارك : ٩

بُورْد : ٦٩

بُونْتَفِير ، الكاهن : ٢١ ، ١٨ ، ١٤

بيير ، سانت : ٩٥

( ت )

تريزلى فاسور : ٤٧ - ٦٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣

( ج )

جربيرى : ٩٥

جِفَرَسُون ، توماس : ٨٧

جُفَرِين ، مدام : ٦٤

جُلُوك : ٩٥

جوتيه : ٦٩

جورج الثالث ، ملك انجلترا : ٩٣

جورج ساند : ٨٦

جوفون ( الابن ) : ٢٤

جوفون ( الكونت ) : ٢٤

( د )

دافيد هيوم : ٩٣ ، ٨٩

دوبين ، مدام : ٦٤ ، ٥١ ، ٤٦

دی اِبْنَائِي ، مدام : ۶۴ ، ۷۷ ، ۹۱

دی اَلْمِيْر : ۴۵ ، ۶۳

دی بُوْرِنَقَال ، مدام : ۴۶

دِيْدِرُو : ۴۵ ، ۵۱ ، ۶۳ ، ۶۵ ، ۶۹

دی رِيْشَلِيُو ، الدوق : ۴۴ ، ۸۰

دی سانت جرمين : ۵۷

دی فِرَانِكُل ، مدام : ۵۲ ، ۵۷

دی فرسيليز ، مدام : ۲۱

ديكارت : ۴۱

دی لَكْسِمْبُرْج ، المرشال : ۵۹

دی مَابِلِي ، م : ۴۳ ، ۴۴

دی هُلْبَاك ( البارون ) : ۶۴ ، ۸۷

دی وَاْرِنْتز ( البارون ) : ۲۶

دی وَاْرِنْتز ، مدام : ۱۵ ، ۲۶ ، ۳۴ ، ۳۷ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۱ ، ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۴

( ر )

رُوْلِهِيْر ، م . دی : ۶۵

( ز )

زوليتنا : ۴۶

( س )

سِدْنِي : ۸۱

سقراط : ٨١

سوزان برنار : ٩٠٨

( ف )

فازي ، المستر : ١٣

فردريك الأكبر : ٨٧

فنتز نريد : ٤٣

فنتور دي فيلنوف : ٣١

فوسور دي فيلنوف : ٣١

قولتير : ٢٧ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

( ك )

كارليل ، توماس : ٧٢

كاستل ، الأب : ٤٦

كثفين (جن) : ١٦

كلود آني : ٣٨

( ل )

لكسمبرج ، الدوق : ٦٤

لمبرسير ، الأستاذ : ١٠

لمبرسير ، الأنسة : ١٠

لنكولن ، أبراهام : ٨٣

لوك ، جون : ٨١ ، ٤١

لويس الخامس عشر، الملك : ٨٠

لويس الرابع عشر، الملك : ٨٠

لويس السادس عشر، الملك : ٨٠

ليبنيز : ٤١

لى فاسور، مدام : ٦٦

لى ميتر، م : ٢٨

( م )

مارات : ٨٤ ، ٧٣

ماريفوكس : ٦٣

مارمونتيل : ٦٣

مريون ( الخادمة ) : ٢٢

مونتسكيو : ٧٠ ، ٤٥

مونتيج، السفير الفرنسى، م : ٤٦

( ن )

نابليون : ٨٥

( هـ )

هيكل باشا، الدكتور محمد حسين : ٥

( و )

واشنطن، جورج : ٨٣

# فهرس أعلام الأماكن

---

الباستيل : ٨٠

البندقية : ٤٦

الرومان : ٦٨ ، ٦٧

اليونان : ٦٨ ، ٦٧

آنسى : ٣٧ ، ٣٤ ، ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ١٥

أورليان : ٤٧

باريس : ٧٨ ، ٧٧ ، ٥١ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٣٤ ، ٣٣

باكوس : ١٣

برجون : ٩٣

بودرى : ٣٢

بوسى : ١٠

بيدمونت : ٢٥

تورين : ١٥

جنيف : ٧٨ ، ٧٧ ، ١٢ ، ٨ ، ٧

ديجون : ٦٥

روسیا : ۸۶

سان جرمان : ۷۱

سردینیة : ۲۶

سولور : ۳۳

شارمٹز : ۳۹، ۴۰، ۴۱، ۴۲، ۴۳، ۴۴

شامبری : ۳۷، ۴۰، ۴۲

شفریت : ۷۸

فریبزج . ۲۹، ۳۰

فینسینس : ۶۵

گنجنون : ۱۴

لوزان : ۳۰

لیمان، بحیرة : ۲۶

لیون : ۲۸، ۳۶، ۴۳

مصر : ۶۷، ۶۸

مونکین : ۹۳

مونتمورنسی : ۷۸

نیون : ۱۰، ۲۹

هولندة : ۷۸، ۸۰

# كتب للمؤلف

- ح
- ٥٠ (١) روح التربية والتعليم
- ٥٠ (٢) الاتجاهات الحديثة في التربية
- ٥٠ (٣) التربية والحياة ، أو كيف نصلح التعليم
- ٣٥ (٤) التربية الإنجليزية
- ٥٠ (٥) جان جاك روسو وآراؤه في التربية والتعليم
- ١٥ (٦) جان جاك روسو المصلح الاجتماعي
- ١٥ (٧) الشخصية
- ٤٠ (٨) في علم النفس (ج١) بالاشتراك مع الأستاذين : عبد القادر ومظهر
- ٥٠ (٩) في علم النفس (ج٢) » مع الأستاذ حامد عبد القادر
- ٦٠ (١٠) في علم النفس (ج٣) » » » » »
- ١٥ (١١) أروع القصص لشارلز دكنز
- ١٥ (١٢) قصص في البطولة والوطنية
- (١٣) الآداب السامية ، مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وآدابها ( يطبع الآن )
- (١٤) لفصل ، في اللغة السريانية وآدابها . ( طبعة الوزارة ) .
- (١٥) الأساس ، في اللغة العبرية وآدابها بالاشتراك مع المرحوم الدكتور  
على العناني ، والأستاذ محرز . ( طبعة الوزارة )
- (١٦) أحسن القصص ، في سبيل الوطن . } بالاشتراك مع ٧
- (١٧) » » ، خليفة في الخيال . } الأستاذين عبداللطيف ٦
- (١٨) » » ، الحصان المسحور . } وحسن جوهر ٦